إيبارشية المنيا وأبوقرقاص
للأقباط الأرثوذكس

دراما الصلب

الجزء الخامس

مكاريوس
الأسقف العام

إيبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

دراما الصلب

الجزء الخامس

إعداد :
مكاريوس
الأسقف العام

اســـم الكتـــاب: **دراما الصلب (الجزء الخامس)**

المؤلـــــــــف: الأنبا مكاريوس، الأسقف العام.

الناشـــــــــر: إيبارشية المنيا وأبو قرقاص للأقباط الأرثوذكس

الطبعـــــــــة: الأولى، مارس ٢٠١٩

المطبعـــــــــة: مطابع النوبار – العبور

الغـــــــــلاف: القس بولا وليم

صـــورة الغـــلاف: المتنيح الفنان يوسف نصيف

التنسيق الداخلي: عادل بخيت

العنـــــــــاوين: مجدي لوندي

رقـــم الإيـــداع: ٧٢٧٠ / ٢٠١٩

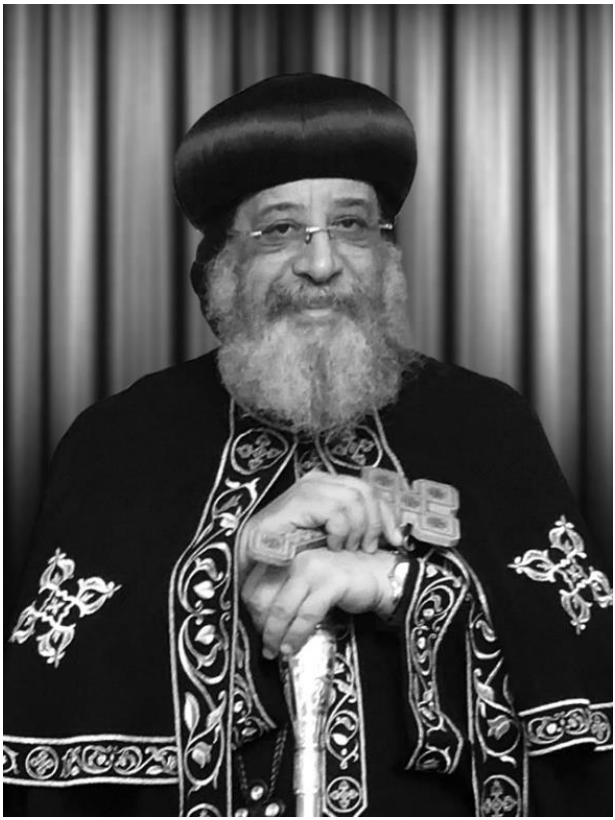

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

مقدمة الكتاب

هذا هو الجزء الخامس من مجموعة كتب دراما الصلب، وتدور مقالاتها حول آلام المسيح وصلبه وقيامته، هذه الأحداث التي احتلّت أصحاحات كاملة من العهد الجديد، وهي الأحداث الأهم في حياة المسيح بالجسد على وجه الإطلاق، وقد تكلّلت بالقيامة المقدسة والتي هي العمود الفقري للمسيحية.. ونحن نعيش هذه الأحداث ليس كتاريخ نرويه، كلّا! وإنما نتألم معه بقلوبنا، ونغطّي وجوهنا خجلًا منه لأن خطايانا سبّبت له كل هذه الآلام الجسدية والنفسية، ونشعر خلال هذا الأسبوع أن كل ما يكابده السيد المسيح كان من نصيبنا نحن، ولكنه تألم عوضًا عنّا.. نتابع النبوات وتحقيقها، ونرتل الألحان مُقدِّمين أسمى عواطفنا، ننحني قدام صليبه، ونسكب أنفسنا سكيبًا عند قدميه، ونطلب منه أن يغفر لنا خطايانا.. وتنقضي أحداث الصلبوت، لنستمر في وضع أثقالنا ومتاعبنا واحتياجاتنا على ذبيحته فوق المذبح، فالذبيحة التي قُدِّمت على الصليب فوق الجلجثة ما تزال مستمرة حتى المجيء الثاني للمسيح في مجده.

إننا نصف آلامه بأنها: "الآلام المُحيية".. وصارت أحداث تلك الجمعة المُسمّاة بـ"الكبيرة" مُلهِمة للّاهوتيين والروحيين والكنسيين والموسيقيين والفنانين والأدباء، وتحولت قصة الصليب إلى ملحمة حب: «مع المَسيحِ صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المَسيحُ يَحيا فيَّ. فما أحياهُ الآنَ في الجَسَدِ، فإنَّما أحياهُ في الإيمانِ، إيمانِ ابنِ اللهِ، الّذي أحَبَّني وأسلَمَ نَفسَهُ لأجلي» (غلاطية ٢:٢٠).

الرب قادر أن يستخدم هذه الصفحات لمجد اسمه القدوس، بصلوات قداسة أبينا البابا تواضروس الثاني، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية. وبركة الرب تشملنا في هذه الأيام المقدسة.

مكاريوس الأسقف العام

لماذا نحتفل بالأعياد

طالما أن المسيح قد جاء بالفعل، وهذا إيماننا الراسخ والمستند على الكتاب والآباء والتقليد والتاريخ، وعليه فقد تمّ التجسد والفداء، ونحن نحيا بالفعل مفاعيل هذا التجسد ونتائجه، ونمارسه يوميًا من خلال الإفخارستيا، فلماذا إذًا نحتفل كل عام بالتجسد والعماد والصليب والفداء والقيامة والصعود وإرسال الروح القدس، وغيرها من الأعياد؟ ولماذا رتبت الكنيسة أن تكون هناك أعياد سنوية، وأخرى شهرية، وثالثة أسبوعية، ورابعة يومية؟ وهنا نحاول الإجابة قدر المستطاع...

أولًا: لأن الله فوق الزمن، وبالتالي جميع أفعاله الخلاصية. الله ليس له ماضٍ وحاضر ومستقبل «يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ» (عبرانيين ١٣:٨)، ونقول في أبصالية يوم الاثنين: "تغرب الشمس والقمر في زمانهما، وأنت هو أنت، وسنوك لن تفنى". وعندما قدم المسيح ذاته على الصليب، قدمها مرة واحدة، وهي كافية جدًا، ولكنها غير محدودة بل وممتدة إلى مجيئه الثاني المبارك، ويقول القديس بولس الرسول: «كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا، أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟» (١كورنثوس ١٠:١٦)، وهذا الكلام يكتبه بعد أكثر من ثلاثين سنة من صلب الرب على الجلجثة، أي أن الذبيحة مستمرة من خلال الإفخارستيا. وفي القداس الإلهي نحتفل بذكرى آلام المسيح وقيامته وصعوده ومجيئه الثاني، ومع أننا ما زلنا نتشوّق إلى هذا المجيء فهو لم يأتِ بعد، إلا أننا نحتفل به "نصنعه"، إذًا فالحدث الميلادي ما يزال مستمرًا وفاعلًا بالكنيسة.

ثانيًا: حتى نعيش أجواء الحدث، فنحيا بنفس مشاعر الجالسين في الظلمة وظلال الموت، والضيق الذي بلغ أشده عند الناس، وتعاظُم الخطايا، وجرأة الشياطين، وحال المدينة التي يهدّدها اللصوص، وتشوُّق الناس إلى مجيء الملك المخلص، مع طول فترة الغربة عن الله، والحاجز الكبير الذي نشأ ليس المتوسط فقط الذي أشار إليه القديس بولس الرسول مستعيرًا ذلك الحاجز في هيكل سليمان (أفسس٢:١٤)، وإنما الحاجز بين السماء والسمائيين، والأرض والأرضيين، ومن ثَمّ فهناك معنى للنور والملائكة الذي بدأوا في التردّد على الأرض، وموكب الخلاص الذي بدأ في الظهور: من السيدة العذراء، إلى زكريا وأليصابات، إلى يوحنا، وحنة النبية، وسمعان الشيخ، ويوسف النجار، وسالومي، والرعاة والمجوس، وغيرهم.. ويصالح الله السمائيين والأرضيين بالمسيح، ومن ثَمّ يشملنا الفرح وتغمرنا السعادة ونحن نستعد لاستقبال المولود الكائن قبل كل الدهور، تمهيدًا للفداء والقيامة وانفتاح الفردوس.

وثالثًا: سعادتنا بأننا صرنا مُطوَّبين، لأننا ننظر ونسمع ما اشتهى الأنبياء والأبرار أن يروه وأن يسمعوه فلم يروا ولم يسمعوا، ولم يكن نصيبهم سوى بعض النبوات والرموز والإشارات والرؤى، فرأوا المواعيد ولكن من بعيد: «أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ. أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْسَ قَرِيبًا» (عدد ٢٤:١٧) وحيّوها ورقدوا على الرجاء الذي سلمه جيل للجيل التالي.

كما أننا نتمتع بأن نقرأ ما كُتب في العتيقة ثم نسعد بتحقيقه في العهد الجديد، وليس نقرأه فقط، مُشبَّهين في ذلك بالرجلين اللذين حملا عنقود العنب من أرض الموعد، فقد كان المتقدم لا يرى أمامه شيئًا بينما كان الذي تلاه يرى ما تقدم، وهكذا مثّل أحدهما العهد القديم بينما مثّل الآخر العهد الجديد، هكذا

ندرك النعمة التي نحن فيها مقيمون، فإنه بسبب طول الزمان ننسى الملابسات والخلفيات والمعاناة، ومن ثَمّ لا ندرك ما نحياة ومفاعيل الخلاص وثمر البر.

ولعل ذلك يُعَد من الأسباب الرئيسية في ضعف المسيحيين في بعض البلاد، أي بُعدهم عن الحدث الأساسي والاحتفال به جوهريًا، وليس شكليًا وماديًا، والذي من شأنه إضعاف معنى العيد وقيمته، إذ تحول الكريسماس (ميلاد المسيح) على سبيل المثال إلى طعام وخمر وهدايا وغيرها، مما يُعَد تسطيحًا للعيد وجوهره. وهكذا أعياد أخرى صار الاحتفال به لمدة من الزمن بطابع شعبي، وامتد البُعد الشعبي إلى ممارسات من شأنها الإساءة لجوهر العيد. ولذلك نقول في الليتورجية "عيِّدوا عيدًا روحانيًا". ومن ثَمّ فالأصل في الكنيسة هو مجموعة من الأعياد نستعد لها بالصوم مدة بحسب أهمية العيد، وليس مجرد أصوام نختتمها بأعياد.

ومن هنا نفهم لماذا ترتب الكنيسة لكل موسم ليتورجي، قراءات من العهدين مع تفاسير وشروحات وطروحات وعظات مناسبة، وألحان معبرة ونغمات متعددة بحسب الموسم تخاطب وجدان المصلين، إلى استخدام مناسب للمادة شعبيًا في العيد (مثل السعف والبلح وغيرها)، وتوقيتات وغيرها، مما يجعل الحدث واقعًا وحيًّا.

فالعيد ليس مجرد عنوان وليس مجرد تاريخ، ولكنه حدث وجوهر لم يَقدم ولم يبلَ، بل حي مستمر، وحدث هام نستعيده ونتأمله ونؤكد على مفعوله فينا، مثل ميلاد شخص فيه نتذكر كم انتظرناه وطلبناه بحرارة من الله، وكم كان مجيئه بركة وإضافة للعالم ونورًا لكثيرين، وأن الله أنعم على الأرض والبشر بقدومه.. فكم بالأحرى أفعال المسيح الخلاصية، ثم أولئك الذين عاشوا وشهدوا له وماتوا من أجله، وهكذا بقية المناسبات والأعياد.

عقيدة الفداء

لفظة الفداء: تعني تخليص شخص من الموت (عن طريق شخص بديل) حيث يتحمل الشخص البديل الموت عن الآخر (يموت الفادي بدلًا من المفدي)، مثل فداء إسحق بالكبش، وفداء بكر الإنسان، وذبائح الفداء والتكفير.

وقد يموت إنسان شرير عن بار، وشرير عن شرير مثل تجار المخدرات، وبار عن بار مثل أم عن ابنتها، ولكن الله وهو كامل البر والقداسة مات عن الإنسان الخاطئ الشرير.

القصة:

تبدأ القصة عندما خلق الله آدم، قال له: «وأمّا شَجَرَةُ مَعرِفَةِ الخَيرِ والشَّرِّ فلا تأكُلْ مِنها، لأنَّكَ يومَ تأكُلُ مِنها موتًا تموتُ» (تَّكوينُ ٢:١٧)، ولكن ذلك لم يكن تهديدًا بل تحذيرًا، مثل أن تقول أم لابنها: "إذا ذهبت إلى ذلك المكان سوف تسقط إلة الأرض"، وهذا يعني أنها تحذره من الخطر لا تهدده بأنها سوف تسقطه. إذًا جاء الموت كنتيجة وليس كعقوبة، الله محب: نبّه آدم ولم يهدده.

ولكن حصلت الغواية والتعدي: فما هو الحل؟ هل يميته ويخلق غيره؟ أم يسامحه ويمر الأمر؟ هل يميته ويخلق آخر لا يخطئ، وبالتالي ليس هناك داعٍ للتجسد والفداء؟ لأن البعض ينادون بذلك: أي أن آدم اخطأ واعتذر لله والله سامحه، وانتهى الأمر، كلّا!

١- فهذه إهانة لله إنه لم يقدر أن ينقذ أدم الذي خلقه.

٢- ويكون الشيطان قد انتصر، ويكون الله أنصف الظالم..

٣- ولصار الناس يتعلمون الشر وعبدوا الشيطان (مثل عبدة الشيطان).

٤- وإذا خلق الله غيره أسقطه الشيطان من جديد وهكذا!

ويعلق القديس أثناسيوس: "كان خيرًا لو لم يُخلق مِن أن يُخلق ويهلك".

فهل يسامحه وينتهي الأمر:

١- ولكنه سيسقط من جديد.

٢- كما أن الأمر يحتاج إلى تجديد (مثل الطفل الذي شرب السم، نحتاج للتخلص من سم الخطية).

٣- كما أنه لابد وأن العدل الإلهي يتخذ مجراه..

ولكن لماذا نسل آدم أيضًا يُعاقَب ويحمل وزر الجد؟ أليس هو الذي أخطأ:

١- الذين وُلِدوا من آدم وُلِدوا أمواتًا «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رومية٦:٢٣)

٢- «كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ» (١كورنثوس١٥:٢٢)

٣- من ملك عبدًا فقد ملك أولاده (المولود في البيت لعبد، هو عبد لسيده).

٤- من وُلِد في السجن يأتي مسجونًا.. (مثل أم مسجونة وحبلى فيأتي المولود مسجونًا).

٥- لقد ورثنا الطبيعة الفاسدة (وإلّا فمن أين لنا الكذب والغضب والطمع... إلخ؟).

٦- حرمان نسل آدم من جنة عدن، دليل على اشتراكنا مع آدم أي طردنا معه، ولم يُفتح الفردوس إلّا بعد الفداء.

«فإذًا كما بخَطيَّةٍ واحِدَةٍ صارَ الحُكمُ إلَى جميعِ النّاسِ للدَّينونَةِ... لأنَّهُ كما بمَعصيَةِ الإنسانِ الواحِدِ جُعِلَ الكَثيرونَ خُطاةً...» (روميَةَ ٥:١٨-١٩). «كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ» (رومية ٥:١٢). «الكُلُّ قد زاغوا مَعًا، فسدوا. ليس مَنْ يَعمَلُ صَلاحًا، ليس ولا واحِدٌ» (مزمور ١٤:٣)...

هذا رد علي الذين ينكرون الخطية الأصلية ووراثتها، مثلما ادّعى بيلاجيوس القس البريطاني، والذي حرمه مجمع القسطنطينية: وهو راهب قس من بريطانيا وكان ينادى بأن "خطية آدم قاصرة عليه دون بقية الجنس البشري"، وأن "كل إنسان منذ ولادته يكون كآدم قبل سقوطه". ثم قال إن "الإنسان بقوّته الطبيعية يستطيع الوصول إلى أسمى درجات القداسة بدون انتظار إلى مساعدة النعمة"... وبديهي أن هذه التعاليم الفاسدة تهدِم سِرّ الفداء المجيد ويُضْعِف من دم السيد المسيح.

هناك فرق بين الخطية الأصلية الجدية (كما قال داود النبي: «بالآثام حُبِل بي، وفي الخطايا ولدتني أمي»)، والخطايا الفعلية أو الشخصية (الإرادية). فالأولى مات عنها المسيح وتُغفَر لنا في المعمودية، والثانية تحتاج اعترافًا وغفرانًا يسحب من استحقاقات دم المسيح أيضًا، الذي تركه لنا في الكنيسة.

نتائج السقوط:

موت: لأن أجرة الخطية هي موت (رومية ٦:٢٣)، «بحسد إبليس دخل الموت إلي العالم» (حكمة ٢:٢٣،٢٤). يقول القديس أثناسيوس: "إذا لم يمت الإنسان لا يكون الله صادقًا".

موت أدبي: لقد فقد الانسان صورة الله، فقد العلم «لا يَعلَمونَ ولا يَفهَمونَ. في الظُّلمَةِ يتَمَشَّوْنَ. تتَزَعزَعُ كُلُّ أُسُسِ الأرضِ» (مزمور ٨٢:٥)، وفسدت الطبيعة البشرية، وتمردت الوحوش والأرض (تكوين ٣:١٥)، وصار البشر عرضة للألم والتعب والشقاء والمرض والخوف (حتى الخشية من صوت الله!).

موت روحي: الانفصال عن الله (مثل التيار المنقطع عن المصباح).

حتمية عمل المسيح الفدائي:

١- محبة الله: الله محب ولا يمكن أن يترك أولاده يهلكون.

٢- بهذا يتلاقي العدل مع الرحمة: تتخذ الرحمة مجراها مثلما يتخذ العدل مجراه، لأنه حذّره: «موتًا تموت».

٣- لا تنفع المسامحة وحدها لأنه يحتاج إلى تجديد، تجديد الطبيعة البشرية، وعودة الإنسان إلى حالة القداسة التي كان عليها.

٤- إفناء الإنسان فيه إهانة لعمل الله وعظمته، وبالتالي فشل رحمته وحبه.

٥- لا يصحّ أن ينجح الشيطان، وإلّا فسوف يكررها وينتصر الظالم.

مواصفات الفادي..

لا شك أن الإنسان اتخذ عدة تدابير لمواجهة الشر والجريمة، مثل إنشاء القضاء والشرطة والسجون والمستشفيات.. ولكن الجريمة تزداد. وصار الإنسان مثل شخص ينزف ويحتاج إلي عملية نقل دم، ولكن من نفس الفصيلة.. (مثل زرع الكلى والكبد والقرنية.. إلخ).

المواصفات:

١- إنسان له صفات الإنسان حتى ينوب عنه. ومن ثَمّ لا يصلح الحيوان إلّا في تمهيد الذهن للعمل الفدائي، فكل الذبائح تشير إلى المسيح الذبيحة الحقيقية لمغفرة الخطايا.

٢- أن يكون قابلًا للموت (لأن الحكم هو: «موتًا تموت» تك ٣:١٧)، وأجرة الخطية موت، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عبرانيين ٩:٢٢).

٣- أن يكون بلا خطية، بل معصومًا من الخطأ، لأن آدم خُلِق بدون خطية ومع ذلك أخطأ (أي ليس معصومًا).

٤- أن يكون غير محدود، لأنه سيقدم غفرانًا غير محدود للبشر منذ آدم حتى يوم الدينونة، وهذا يشرح لنا كيف كان لابد أن يكون اللاهوت متحدًا بالناسوت.

٥- أن يكون خالقًا، لأن فساد الطبيعة يحتاج إلي "تجديد الخليقة". ولأن المخلوق عبد، ونفسه ليست مِلكًا له بل مِلك الله، فلا يحل له أن يقدمها عن آخرين ولا حتى عن نفسه بالتالي.

٦- أن تكون له محبة عظمى، حتى يقبل أن يبذل نفسه عن كل البشر.

+ فهل يصلح نوح البار في جيله.. أو متوشالح صاحب أطول عمر بشر، أو إبراهيم خليل الله، أو داود الذي حسب قلب الله..؟ بالطبع لا!.. لأن كل هؤلاء مخلوقون، وخطاة، ومحكوم عليهم بالموت، ويحملون طبيعة فاسدة، ومحدودة، ولا يملكون حتى أنفسهم.

+ إذًا فهل يصلح حيوان؟ الحيوان ليس مثلنا وإنما يتبع مملكة الحيوان، وليس له روح بينما الإنسان له نفس وجسد وروح (المسيح في تجسده أخذ جسدًا ونفسًا وروحًا إنسانية بخلاف لاهوته)، كما أن الله لا يُسَر بدم التيوس والعجول، وأما الذبائح فقد كانت إشارة وتمهيدًا للمسيح الذبيحة الحقيقية.

+ فهل يصلح الملاك ميخائيل مثلًا؟.. بالطبع لا! لأنه روح (الملائكة أرواح خادمة ليس لها جسد)، حتى إذا تجسد من العذراء؟ فإنه مخلوق ومحدود، وإذا حدث وفدانا فإننا نعبده؟ كما أنه لم يخطئ والله لا يريد أيضًا أن يميته عن أحد، بل يموت هو عن الكل، كما أن السموات ليست طاهرة أمامه وإلى ملائكته ينسب حماقة.

إذًا الله وحده هو القادر على ذلك:

+ خالق غير محدود (كفارة ليس لخطايانا فقط بل لخطايا جميع البشر).

+ معصوم من الخطأ لم يرث الخطية، «الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ» (١بطرس ٢:٢٢).

+ ولأنه ليس من زرع بشر، فلم يرث الخطية..

+ ولأنه ليس إنسانًا وليس له جسد يموت، فقد تجسد وأخذ جسدًا مثل جسدنا وشابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها، فأصبحت الكفارة التي

قدمها بجسده غير محدودة. والقديس بولس يقول: «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ» (عبرانيين ٢:١٤).

يقول القديس أثناسيوس: "آخذ الكلمة جسدًا قابلًا للموت، وإذ اتحد الكلمة بالجسد أصبح كافيًا عن الكل".

ولكن لماذا المسيح أقنوم الابن بالذات هو الذي يتجسد ويموت عنا؟

أولًا: لأنه هو أقنوم الحكمة، عقل الله الناطق، فسيكون وسيلتنا لدى الآب..

ثانيًا: لأنه الابن هو الخالق، كل شيء به كان، وبالتالي يجدّد الخليقة التي فسدت..

النتيجة (بركات الفداء):

مقابل الموت الروحي = تم صلح وسلام.

مقابل الموت الأبدي = وُهِبت لنا حياة أبدية.

مقابل الموت الأدبي: (الخطية) = غفران وتقديس وتطهير «دَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ» (١يوحنا ١:٧).

التبرير:

المسيح جعلنا أبرارًا بصليبه «لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تَقَدَّسْتُمْ، بَلْ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا» (١كورنثوس ٦:١١)، وهناك فرق بين التبرير والتبرئة، فالتبرئة تعني أننا لم نخطئ أصلًا، وهذا غير صحيح، وأمّا التبرير أن الله جعلنا متبرِّرين بدمه وصليبه. ولكن التبرير ليس بالإيمان وحده ولا

بالنعمة وحدها، بل أيضًا بالمعمودية والأعمال الصالحة والتوبة (هناك جانب بشري هام). والتبرير ليس مرة واحدة بل نحتاج إليه طول العمر، ونحتاج إلى غفران مستمر وجهاد «لَمْ تُقَاوِمُوا بَعْدُ حَتَّى الدَّمِ..» (عبرانيين ١٢:٤). وإذا كنا بالإيمان بفداء المسيح قد تبررنا وحصلنا علي سلام الله، فإننا لن نحتفظ بهذا السلام إذا عشنا في الخطية، فالسلام ليس نتيجة التبرير وحده، ولكن التقديس والتوبة والتناول.. وسكنى الروح القدس بالميرون (البروتستانت ينكرون ذلك).

أسئلة:

١- هل مات المسيح بنا، أم مات هو عنا ولأجلنا؟

يردد البعض أن المسيح تجسد بنا وصام بنا وصلى بنا ومات بنا، بينما يقول المسيح عن نفسه: «قَدْ دُسْتُ الْمِعْصَرَةَ وَحْدِي، وَمِنَ الشُّعُوبِ لَمْ يَكُنْ مَعِي» (إشعياء ٦٣:٣)، كما أن جسد البشر خاطئ فكيف يفدي؟ وإذا مات عن البشر يكون ذلك استحقاقًا وليس فداء، لأنه مات به ولم يمت بدلًا منه.

وفكرة الفداء أن نفسًا تموت عن نفس لا أن تموت بنفس الشخص، وإلّا فكيف يكون الفداء؟ (وما يحدث في المعمودية هو أننا نموت مع المسيح «مَدفونينَ معهُ في المَعموديَّةِ، الّتي فيها أُقِمتُمْ أيضًا معهُ بإيمانِ عَمَلِ اللهِ، الّذي أقامَهُ مِنَ الأمواتِ» (كولوسّي ٢:١٢)، «لأنَّهُ إنْ كُنّا قد صِرنا مُتَّحِدينَ معهُ بشِبهِ موتِهِ، نَصيرُ أيضًا بقيامَتِهِ» (روميَةَ ٦:٥))، وإذا كانت البشرية قد صُلِبت معه على الصليب، فلماذا نتعمد إذًا؟

ولذلك لم نشترك في آلامه الفادية، أما المقصود بـ«شركة آلامه» (فيلبي:١٠٣) فهو آلام الخدمة والتألم في الجهاد ضد الشهوات (مع المسيح

صُلبت..)، ويقول أيضًا: «وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ» (غلاطية ٥:٢٤)، كما أن المسيح لم يصعد بجسد كل الخطاة لأن كل الخطاة لم يتوبوا بعد، يقول السيد المسيح: «الّذي يؤمِنُ بالِابنِ لهُ حياةٌ أبديَّةٌ» (يوحنا ٣:٣٦) (والبعض لم يؤمنوا). وأما الذين يبررون ذلك بأننا نموت مع المسيح في المعمودية فهناك فرق بين الصليب والمعمودية (في مسألة موتنا معه).

فكره أنسلم عن الفداء:

قال أنسلم وهو رئيس الأساقفة في كانتربري في القرون الوسطى إن موت المسيح كان لإيفاء العدل الإلهي فقط، وهو يقدمه على أنه فادي وفدية وبشر يُستخلصون من يد الشيطان، ولكن اللاهوت الشرقي يعلم بأن السيد المسيح بتجسده وفدائه جدد الخليقة وارتقى بها.. لنصبح شركاء الطبيعة الإلهية.

وفكره أنسلم لا تترك مجالًا لأهمية القيامة، بل تجعلها هامشية، ولا أهمية لميلاد الإنسان من الماء والروح، كما وتُظهر الصليب كعلامة غضب، مع أنه علامة حب ورمز الانتصار. إن الفرق بين العدل البشري والعدل الإلهي: أن الأول يطلب العقوبة والقصاص، بينما الثاني يهتم برد المتهم إلى حالته الأولى.

وفكرة إرضاء الابن للآب تقسّم الثالوث، وبالتالي فإن ميمر العبد المملوك خطأ.. لأنه يجعل الآب يمثّل العدل والابن الرحمة (وفي هذا تعدد للآلهة)، وهكذا هل يمكن لأقنوم أن يقبل الترضية من أقنوم آخر؟ إن هذا يتعارض مع وحدة الجوهر، ووحدة عمل الله نفسه.

ويقول القديس أثناسيوس الرسولي في ذلك:

"لأن الكلمة سُر أن يُولد ميلادًا إنسانيًا لكي يعيد خلق الإنسان من جديد في ذاته، صائرًا صورة ومثالًا للتجديد لكي تشترك فيه صنعة يديه التي فسدت بالشر والفساد والموت، فأزال مِن على الأرض حكم الخطية، وعلى خشبة الصليب أزال اللعنة، وفي القبر افتدى الفاسد، وفي الجحيم أباد الموت، وهكذا افتقد كل مكان وكل حالة لكي يؤسس خلاص الإنسان كله ويعلن بذلك صورة جديدة لطبيعتنا.

فما هي الحاجة التي دعت الله الكلمة بأن يولد من امرأة، وأن ينمو خالق كل الدهور في القامة، وأن يُحسَب عمره بالسنوات، أو أن يختبر الصليب والقبر والجحيم؟!. ولكن لأننا نحن البشر الذين خضعنا لكل هذا، فاجتاز هو أيضًا كل هذا، لأنه يطلب أن يخلصنا فأعطانا الحياة الجديدة في صورته الكاملة لكي نتشبه به."

عَلَى مشارف الصّليب

السّلامُ الملكيُّ

وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلًا:«مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟» فَقَالُوا: «قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (متى١٦:١٣-١٧).

كان السيد المسيح على مشارف الآلام والصلب، وكان قد قضى مع التلاميذ أكثر من ثلاث سنوات، وأراد أن يعرف إلى أي مستوى وصل في أذهانهم، أو بمعنى أدق بمن سيكرزون.. ولكنه سألهم أولًا عن رأي الناس فيه، وكان الكثير منهم يرون أنه نبي، وعاد ليسألهم هم الذيم يحيون معه ويرونه ويسمعونه ويتلامسون معه، بمن سيكرزون؟ هل بمجرد فيلسوف، أم مُصلح اجتماعي، أم قائد، أم ساحر، أم واعظ ماهر؟ وهنا انبرى القديس بطرس ليصفه معبِّرًا عن إيمان جماعة التلاميذ قائلًا: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ».

لكل مملكة قصر وملك وعرش وعَلَم ونشيد ملكي، والمسيح هو ملك الملوك، مملكته السماء والأرض، وعرشه قلوبنا، وعلمه: علامة الصليب، وأمّا

النشيد الملكي فهو ما نستقبله به عند حضوره.. فعند قراءة الإنجيل، تُحسَب المنجلية كأنها الجبل الذي صعد عليه وجلس ليعلم التلاميذ والشعب، لذلك يُقال "يصعد إلى الأنبل أو المنجلية". وبخلاف ما يحدث عند قراءة البولس والكاثوليكون والإبركسيس والسنكسار، فإنه عند قراءة الإنجيل يقف الشعب، وفي بعض الكنائس مثل الروسية والإثيوبية فإن الشعب يسجد، كما يصاحب قراءة الإنجيل رفع البخور بجوار المنجلية، كدلالة على الحضور الإلهي، مثلما حلّ الله على جبل سيناء فدخّن الجبل كله، وكذلك عندما ملأ مجد الرب الهيكل عند تدشينه في أيام سليمان.

عندما يحل وقت قراءة الإنجيل، يقف الشماس ليقدم له، لا سيّما وأن الذي كان يقرأ الانجيل هو الآب الأسقف بنفسه (وقد عاد هذا الطقس ليظهر من جديد) وهو ممثل المسيح، ولكن في جميع الأحوال –وأيًّا كان القارئ– فإن القارئ الحقيقي هو الرب يسوع الحاضر معلّمًا من أعلى المانجلية. هذه التقدمة يمكن أن نطلق عليها "السلام الملكي"، حيث التقطت الكنيسة اعتراف القديس بطرس «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ» (متى ١٦:١٦) وهو الاعتراف المعبِّر عن ايمان التلاميذ (الكنيسة المبتدئة) بالسيد المسيح، لتجعل منه هذه التحية الملكية، فيقول:

"مبارك الآتي باسم الرب اله القوات، ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا، يسوع المسيح ابن الله الحي، الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين".

في العبارة الأولى يشير الشماس إلى قدوم الرب، مثلما يفعل المندوب الملكي أو الرئاسي عندما يقف ليراقب الطريق معلنًا قدوم الملك، وهو المُسمى كتابيًا وكنسيًا بـ"السابق"، والذي يصرخ معلنا قدوم الملك أو العريس، ويُسمى

ذلك الصراخ بالكرازة (كرازة من اللفظة اليونانية: كرازو أي يصرخ). ومن ثَمّ يبدأ في توصيفه: **ربنا:** وهي وصف للعلاقة بين السيد وعبيده. ثم يتطور الوصف ليقول **وإلهنا:** وهي لفظة تصف العلاقة بين الخالق وخليقته. ثم **مخلصنا:** وهي تصف العلاقة الشخصية والحميمية بين الله والبشر الذين افتداهم بدمه، وهي علاقة تفوق أيّة علاقة أخرى، وأخيرًا **ملكنا:** المالك على قلوبنا، ثم يختتم التحية أو النشيد باعطاء المجد له علامة الخضوع للملك.

وربما كان لهذه التحية أو السلام الملكي، لحن أُختُصر أو اختفى، وأغلب الظن أنه كان لحنًا عسكريًا، والدليل عندي أن مرد الشعب على هذه التحية باللغة القبطية: "ذوكصاصي كيريي **Ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ Ⲕⲩⲣⲓⲉ**" له جملة موسيقية ذات ايقاع عسكري! كما يُخيَّل لي في كل مرة تُختتم هذه التحية أن قائلها يكاد يهم بضرب قدمه في الأرض بقوة، بينما ترتفع يده إلى جوار رأسه معطية التحية اللائقة.

خِتَام الصَّوم

جمعة ختام الصوم هي ختام وبداية، ختام لرحلة الصوم وبداية لرحلة الآلام المخلِّصة، وهي تشير إلى استقلال الصوم عن أسبوع الآلام فيما سبق مبكّرًا، حيث كان الصوم يبدأ بعد عيد الغطاس، حيث بدأ السيد المسيح الأربعين يومًا عقب عماده، بينما كانت الكنيسة تحتفل باسبوع البسخة قبل الفصح مباشرة، ولكن تمّ ضم أسبوع الاستعداد لاحقًا إلى الأربعين المقدسة ثم ختام الصوم بالبسخة.

إن يوم جمعة ختام الصوم هو يوم حصاد، ماذا تشعر الآن؟ هل سُرِرت بأن انتهى الصوم، أم سُرِرت بأنك جزت الصوم بخشوع ونسك كما يليق بنا؟ هل تخاطب نفسك: هكذا مرّ الصوم سريعًا، أم أخيرًا انتهينا منه؟!.

الكنيسة اليوم تقيم صلاة سر مسحة المرضى "القنديل"، فمن المحتمل أن يكون البعض قد تعرضوا لإعياء شديد نتيجة الصوم، كما أن الكنيسة تهتم بعمل ذلك قبل الدخول في أسبوع الآلام، حيث لا يجوز عمل أيّ من هذه الطقوس أثناءه، ومثله الجناز العام بعد أحد الشعانين، لأنها ستتفرغ للاحتفال بآلام الرب. وبخصوص سر مسحة المرضى، فقد تسلمت الكنيسة هذا السر من الرب نفسه، والذي أمر تلاميذه بأن يشفوا المرضى، وهم بدورهم جاء عنهم (في مرقس ٦) أنهم دهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم. وكذلك يقول القديس يعقوب: «**أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَدْهَنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الرَّبِّ**» (يعقوب ٥:١٤).

وأما اختيار إنجيل قداس اليوم فقد تم بحكمة وارشاد الروح القدس، ففيه إشارة لآلام الرب وقيامته، وتهديد هيرودس، ورثاء الرب لأورشليم، وكلها أمور تتعلق بهذه المناسبة الهامة: آلام الرب وموته وقيامته.

تهديد هيرودس: وصلت يسوع المسيح رسالة تهديد من هيرودس، وكان هيرودس في منطقة الجليل أو بيرية في الشمال، كان قد سمع بأعماله، فقال: «هذَا هُوَ يُوحَنَّا الَّذِي قَطَعْتُ أَنَا رَأْسَهُ. إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ!» (مرقس٦:١٦)، ورغم القلق الذي كان يسببه وجوده في مملكة هيرودس إلا أنه كان يود أن يراه، ولما طلب أن يراه لاحقًا تمنى أن يصنع آية أمامه فرفض المسيح لأن الآيات لها ضرورة وليست للتباهي، ومن ثَمّ أعاده إلى بيلاطس حتى لا يلوّث يديه بقتله كما فعل مع يوحنا. وهنا إذا كان صادقًا فهو يريد أن يهدده لينصرف دون أن يحدث شغبًا، ولكن الرب استخف بتهديد هيرودس، فقد اتخذ قراره بأن يسلّم نفسه للموت، لقد قرر أن يخلصنا بموته «أمّا يَسوعُ... إذ كانَ قد أحَبَّ خاصَّتَهُ الّذينَ في العالَمِ، أحَبَّهُمْ إلَى المُنتَهَى» (يوحنا١٣:١). فماذا يعنيه تهديد هيرودس؟ وأمّا الفريسيون الذين أرسلهم لهذا الغرض فإمّا أنهم محبون له يحذرونه، أو ماكرون أوعز إليهم هيرودس بذلك ولم يظهر في الصورة.

وتعبير وفي اليوم الثالث تعبير عبري شائع معناه ان "زمن قصير" أو عاجلًا تتم المهمة، وهذا يؤكد أنه هو الذي يحدد متى يموت وليس هيرودس، وأنه يمتلك قراره.. وبمعنى آخر يقصد "أيامي معدودة..".

تحذير أورشليم: «يا أورشليم يا أورشليم»، مثل مناداته: سمعان سمعان، مرثا مرثا، شاول شاول... الخ، فهو ينادي كل نفس باسمها.. وتُسمّى هذه

"مرثية أورشليم" وهي بكاء الحب، إنهم لا يشعرون بمحبته، أو يحتقرون تلك المحبة، وعندما يقول «كم من مرة...» فهو يعني أنه ألحّ في التنبيه ولكنهم لم ينتبهوا، وفرد جناحيه لهم ليحتموا بها ويختبئوا من الشرور، ويبيتوا في ظلّ العليّ، ولكنهم رفضوا، وأكملوا مشورتهم... إن الله هنا لم يرفع يده عليهم، كلا! بل يرفع يده عنهم، وما دام هذا رأيهم فالنتيجة الحتمية هي خراب أورشليم.

أُكمَّل: المقصود هنا: أتألم وأموت وأقوم، وليس أكمِّل بمعنى تكملة الشفاء والمعجزات، «هَا أَنَا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ، وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ **أُكَمَّلُ**. بَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَدًا وَمَا يَلِيهِ، لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجًا عَنْ أُورُشَلِيمَ!» (لوقا ١٣:٣٢،٣٣) ويعني التعبير أيضًا: أُكلَّل وأُمجَّد وأكمِّل المهمة. وقد صرخ على الصليب قائلًا: «قد أُكمِل»، «لأَنَّهُ لاَقَ بِذَاكَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ الْكُلُّ وَبِهِ الْكُلُّ، وَهُوَ آتٍ بِأَبْنَاءٍ كَثِيرِينَ إِلَى الْمَجْدِ، أَنْ يُكَمِّلَ رَئِيسَ خَلاَصِهِمْ بِالآلاَمِ» (عبرانيين ٢:١٠). وتعبير "يُكمَّل" استخدم على نطاق واسع ليشير إلى الاستشهاد أو تمام الجهاد في البرية. ونطلب كل يوم في التسبحة من الذين "كملوا" في البراري، أي الذين عاشوا وماتوا للمسيح في البراري. وتتكرر اللفظة في سير الشهداء حين يُقال: "قبل أن يُكمَّل"، أو "في الطريق ليُكمَّل"، أو "فلان الذي كمل في المدينة الفلانية أو في اليوم الفلاني".

وهكذا يأتي اختيار الإنجيل في جمعة ختام الصوم ليشير إلى بداية تكميل المسيح، أي استيفاء آلامه وموته وقيامته.

المسيح وهيرودس

فِـي ذلِـكَ الْيَـوْمِ تَقَـدَّمَ بَعْـضُ الْفَرِّيسِـيِّينَ قَـائِلِينَ لَـهُ: «اخْرُجْ وَاذْهَبْ مِنْ ههُنَا، لأَنَّ هِيرُودُسَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَكَ». فَقَـالَ لَهُـمُ: «امْضُـوا وَقُولُـوا لِهـذَا الثَّعْلَـبِ: هَـا أَنَـا أُخْـرِجُ شَيَاطِينَ، وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أُكَمَّلُ. بَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَدًا وَمَا يَلِيهِ، لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجًا عَنْ أُورُشَلِيمَ! يَا أُورُشَلِيمُ، يَاأُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَـةَ الأَنْبِيَـاءِ وَرَاجِمَـةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا، كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا! هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا! وَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي حَتَّى يَأْتِيَ وَقْتٌ تَقُولُونَ فِيهِ: مُبَارَكٌالآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!».

هناك عدة حكام باسم هيرودس: أولهم **هيرودس الكبير** والذي حكم سنين طويلة قبل الميلاد، وهو الذي وُلِد المسيح بالجسد في أيامه، فأصدر أمرًا بقتله، فهرب إلى مصر. وهو نصف أدومي ونصف يهودي، وكان مواليًا للرومان، وقتل الكثيرين من عائلته في حياته.

ثم **هيرودس أنتيباس** (٤ق.م.–٣٩م.) هو الابن الثاني لهيرودس الكبير من زوجته الرابعة السامرية ملثاكي، لذلك فإن نصفه أدومي ونصفه سامري، وهو الذي قتل يوحنا المعمدان. ولما جلس على العرش بعد إنجازات كثيرة اتسعت مطالبه، حتى حملته امرأته على الذهاب إلى روما ليطلب أن يُمنَح لقب ملك، وهناك غضب عليه الإمبراطور كاليجولا ونفاه إلى ليون.

ثم **هيرودس أغريباس الأول،** وهو ابن ارسطوبولوس، وحفيد هيرودس الكبير، وهو الذي قتل القديس يعقوب أخا يوحنا بالسيف (أعمال ١٢:١ و٢)، وسجن القديس بطرس (أعمال ١٢:٣-١٩). وانتهت حياته بشكل مأسوي فقد أكله الدود بعد أن ادّعى الألوهية (أعمال ١٢:٢٠-٢٣). مات سنة ٤٤ م. وعمره ٥٤ سنة.

وللمسيح مع هيرودس أنتيباس عدة مواقف، منها ما قد ورد في متى ١٤ أنه حالما سمع هيرودس بأعمال المسيح قال: «هذا هو يوحَنا المَعمَدانُ قد قامَ مِنَ الأمواتِ! ولِذلكَ تُعمَلُ بهِ القوّاتُ» (مَتَّى ١٤:٢). ويعلّق العلامة أوريجانوس أنه من الوصف الذي وصفه له الذين عاينوا السيد المسيح، وكان يشبه يوحنا فهناك صلة قرابة بينهما وهو نسيب عمانوئيل، فقد خمن ذلك، ولكن هذا التخمين ينطوي على عقيدة فاسدة هي تقمُّص الأرواح وإعادة التجسد. العجيب أن هيرودس كان صدوقيًا لا يؤمن بالقيامة من الأموات!

والموقف الآخر حين جاء بعض الفريسيين يحذرون المسيح من التواجد في المنطقة لأن هيرودس قد يقتله، ولا نعلم السبب في هذه الروح العدائية تجاه المسيح مع أنه لم يقابله بعد، هل خشي أن يعود سيناريو التبكيت على زواجه من هيروديا؟ أم خوفًا من أن يحدث شغب بسببه؟ أم ماذا؟... وربما كان أولئك الفريسيون عملاء لهيرودس، وربما محبون للسيد المسيح يخشون عليه، ولكن السيد المسيح إذ كان قد قرر أن يقدم نفسه عن العالم لم يكن ممكنًا أن يخشى هيرودس، ولكنه في مناسبات سابقة حين تعرضت حياته بالجسد للخطر هرب واختفى، ليس خوفًا وإنما لأن ساعته لم تكن قد جاءت

بعد، كما أن الطريقة التي قرر أن يقدم بها نفسه لم تكن ضمن الطرق التي كانوا سيقتلونه بها، مثل الرجم وإلقائه من فوق قمة الجبل وغيرها.. هنا قال الرب بشجاعة إن له سلطانًا أن يضع نفسه وله سلطان أن يأخذها، وأنه قرر أن يفعل ما دبّره وليقل هيرودس ما يقول.

أُكمَّل: «هَا أَنَا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ، وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ **أُكَمَّلُ**»، وتعبير أُكمَّل هنا يستخدم في كمال الجهاد والموت وتتميم الغرض، وأُستُخدم لاحقًا ليصف الموت عن المسيح، فأُستُخدم مع الشهداء والقديسين الذين كملوا في البراري (كما أشرنا سابقًا). ويقول القديس بولس «**أَكْمَلْتُ** السَّعْيَ» (٢تيموثاوس :٧٤)، ولذلك نقرأ مثل ذلك في نهاية السنة التوتية. ويقول أيضًا عن سحابة الشهود الذين سبقونا «إِذْ سَبَقَ اللهُ فَنَظَرَ لَنَا شَيْئًا أَفْضَلَ، لِكَيْ لاَ **يُكْمَلُوا** بِدُونِنَا» (عبرانيين :٤٠١١). وفي سفر الرؤيا قيل للشهداء أن يستريحوا زمانًا يسيرًا حتى **يكمل** العبيد رفقاؤهم (رؤ٦:١١)، والكمال هنا fulfilled بمعنى كمال الجهاد من آلام وموت. «أَخِيرًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ افْرَحُوا. **اِكْمَلُوا**. تَعَزَّوْا. اِهْتَمُّوا اهْتِمَامًا وَاحِدًا» (٢كورنثوس :١١١٣).

الثعلب: وأمّا لفظة "ثعلب" فهي تُطلَق على الإنسان الماكر والتافه والمخرِّب. ويقول اليهود في التلمود: "كن ذيلا لثعلب، ولا تكن رأسًا لكلب". فهو وصف لهيرودس الذي استخدم المراوغة كثيرًا في حياته: فهو الذي خدع فيلبس واتخذ زوجته امرأة له وارتكب خطئين: الأول أن فيلبس أخاه ما زال حيًا، والثاني أنه كان متزوجًا من ابنة الحارث ملك العرب. وهو الذي سجن يوحنا بحجة الحفاظ على حياته ثم قتله لاحقًا رغم ما كان يظهره له من احترام وحب. والمرة الثالثة حين أرسل له بيلاطس المسيح أثناء المحاكمة حين علم

أنـه جليلـي، ومـن ثَـمّ فكـر الـتخلص مـن هـذا الكـابوس بإرسـاله إليـه: «وَأَمَّـا هِيرُودُسُ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرِحَ جِدًّا، لأَنَّـهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيل أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَي آيَةً تُصْنَعُ مِنْهُ. وَسَأَلَهُ بِكَلاَمٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ... فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لاَمِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلاَطُسَ» (لوقا ٢٣:٨-١١)؛ هنا المراوغة كيف يبدي احترامًا ثم يحتقره؟ بل أن هيرودس والذي كان على خلاف مع بيلاطس، اصطلح معه في هذا الموقف! وهكذا صالح المسيح الرومان مع اليهود هنا أيضًا.

أمّا سبب رفض المسيح عمل آيات قدام هيرودس فهو بسبب أن المعجزات ليست للإبهار أو لاستعراض القوة، وإنما كان كلٌّ منها لضرورة، وهنا نتذكر أيضًا قول الرب «لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَب، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ» (متى ٧:٦).

والعجيب أن السيد المسيح كما التزم الصمت أمام بيلاطس في المحاكمة هكذا فعل مع هيرودس، حتى أن بيلاطس فقد اتزانه وصرخ قائلا: «أَمَا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَانًا أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَانًا أَنْ أُطْلِقَكَ؟» (يوحنا١٩:١٠)، وردّ عليه المسيح: «لَمْ يَكُنْ لكَ عليَّ سُلطانٌ البَتَّةَ، لو لَمْ تكُنْ قد أُعطيتَ مِنْ فوقُ...» (يوحَنا١٩:١١). فقد سبق وقرّر أن يقدم نفسه عنّا بإرادته، ليجوز المعصرة وحده مُقدِّمًا فداءً ثمينًا.

ليس نبيّ بلا كرامة إلاّ في وطنه

«وَلَمَّا أَكْمَلَ يَسُوعُ هذِهِ الأَمْثَالَ انْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ. وَلَمَّا جَاءَ إِلَى وَطَنِهِ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ فِي مَجْمَعِهِمْ حَتَّى بُهِتُوا وَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ الْحِكْمَةُ وَالْقُوَّاتُ؟. أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟. أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعُهُنَّ عِنْدَنَا؟ فَمِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ كُلُّهَا؟. فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ. وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ» (متى ١٣:٥٣-٥٨).

دائمًا ما تأتي ردود الفعل متباينة تجاه الرسالة: فمَن قبلها، ومَن قاومها، ومن استخف بمضمونها، ومن استخف بظاهرها وشخصها.. ومن المهم الاستفادة بكل ما يُقال على أنه رسالة من الله رأسًا، كثيرون خسروا وتعطّل خلاصهم بسبب فحص المتكلم.

العجيب أن الجموع بُهِتت، ولكن كثيرين من معارفه احتقروه. وتعبير "ابن النجار" يعني أنه ليس متعلمًا ولا متتلمذًا على الربيين. والتعيير بالأم والأب ربما لأنهم ليسو من العائلات الكهنوتية أو الأنبياء أو العائلات الشهيرة. وأحب هنا أن أنوّه إلى ضرورة الافتخار بالأب والأم، ويقول ابن سيراخ: «تَذَكَّرْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ إِذَا جَلَسْتَ بَيْنَ الْعُظَمَاءِ» (سيراخ ٢٣:١٨)، فيزداد بذلك قدرًا بين الناس، لأن من ليس له خير في أهله ليس له خير في الغير. فقد يكون الأب عاملًا بسيطًا، وربما يقوم ببعض الأعمال التي يعتبرها البعض حقيرة، ولكنه

كافح كثيرًا ليتعلم أولاده في كليات القمة، فيخفون حقيقته عن الآخرين! وهل كان لزامًا على الأب أن يجعل أولاده مثله؟!

أتذكر أن من بين الأنبياء من كان جامع جميز كعاموس، ومنهم من كان مزارعًا مثل جدعون، ومنهم راعي الغنم مثل داود، ومن القديسين من كانوا هكذا منهم المطرب والزمار، ومن البطاركة والأساقفة منهم الإسكافي والتاجر وبائع الزيت والنجار والخباز وغيرهم.

ومما يؤسف له أن اليهود هنا يسلكون هذا المسلك، فبدلًا من الانبهار بالمعجزة يبحثون عن السبت وكسره كما حدث في جميع المعجزات تقريبًا، والآن يبحثون عن الأهل والقرية وغيرها، ولعل تحرُّك اليهود ضد السيد المسيح جاء بعد معجزة إقامة لعازر والذي أُقيم في يوم السبت.

ومن ثَمّ رفض السيد أن يصنع مزيدًا من المعجزات هناك «ولَمْ يَصنَعْ هناكَ قوّاتٍ كثيرَةً لعَدَمِ إيمانِهِمْ» (متى ١٣:٥٨)، معلِّلًا ذلك بأنه ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه، وصار التعقيب مثلًا منذ ذلك الوقت، يُقال عن كل شخص يرفضه مجتمعه ويرحّب به مجتمع آخر.

وكان وطن المسيح الذي تربى فيه هو الناصرة «وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ» (لو ٤:١٦)، «وَلَمَّا أَكْمَلُوا كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ نَامُوسِ الرَّبِّ، رَجَعُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى مَدِينَتِهِمُ النَّاصِرَةِ» (لو ٢:٣٩)، «ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا» (لو ٢:٥١).

في كثير من الأحيان يفضل الشخص نفسه أن يبدأ حياته العملية في مكان آخر، ربما لأنهم في مدينته يعرفون ضعفاته، ومن ثَمّ تصبح هذه

الضعفات ماثلة قدام عينيه وكذلك أعين ذويه، وقد يستخدمونها ضده، وقد يعيّرونه بها، مع أنه قد لا يكون له في الغالب ذنب فيها، ولكن الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء تضرس، فقد يسلك أحد أفراد أسرته سلوكًا خاطئًا فيحمل هو وزره، مثل شخص ترك الإيمان أو تطلّق أو سُجِن وغيرها.

وقد ينكرون عليه الغنى إذا كان في السابق فقيرًا، والشهرة إذا كان بسيطًا... ولا يوجد إنسان ليس له نقطة ضعف، ولكن يُحسَب شرف للإنسان أن يكون عصاميًا ويتحدّى الظروف وينجح ويغتني ويشتهر.

وقد يكون فقيرًا وبسيطًا في وطنه، وعشيرة قد تكون الذُلّى، ولكنه ما أن يخرج من مكانه حتى يصبح عظيمًا، ومن ثَمّ تفتخر به أسرته. وربما لو أكمل حياته في بيئته لاحتقروه وتعطل عمله. «فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟ قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: تَعَالَ وَانْظُرْ» (يوحنا ١:٤٦).

العجيب أن بعضًا من عائلة الرب يسوع قاوموه وطلبوا القبض عليه، ربما بضغط من المعارضين وربما بسبب المتاعب التي سبّبها لهم دون قصد، بل وصل الأمر أنهم قالوا عنه إنه مختل! إلى هذا الحد كان بلا كرامة في وطنه «وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ، لأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ مُخْتَلٌّ» (مرقس ٣:٢١).

وأتذكر هنا بعض الشخصيات المصرية وليس القبطية فقط، والتي لم تجد فرصتها هنا ومع ذلك نجحت بقوة خارج البلاد، مثل الأطباء الذين لم يجدوا فرصتهم هنا وأبدعوا في الخارج، ومثل الأطفال الذين تم التمييز بينهم وظُلِموا فلما عاشوا في مجتمع آخر أبدعوا...

وربما يكون النبي أو الشخص بلا كرامة في وطنه بسبب الغيرة منه، ولكن المواهب لا تهدّد الأقوياء، ومن هنا أرجوكم تمسّكوا بكل شخص موهوب

وبكل شخص متميز وواعد، لا تجهضوا موهبة ولا تغاروا من أحد، فإن المواهب تهدّد الضعفاء فقط، وأمّا الأقوياء فيقدّمون الآخرين على أنفسهم ويدفعون بهم إلى النجاح وإلى الظهور، ويكفيهم فخرًا أنهم يكبرون من خلالهم، وكبرهم وشهرتهم لن تنتقص من كرامتهم بل تزيدها، ويحوزون على احترام وتقدير الآخرين، فإن الذي له يعطى فيزداد وأما الذي ليس له فالذي عنده يؤخذ منه. وكم من شخص حرم المجتمع والآخرين من فوائد ومزايا بسبب حسده وغيرته أو خلافه مع آخر موهوب أومتميز.

يحدث هذا في الكهنوت، عندما لا يلتفت أحد سواء من الكهنة أو الخدام لبعض الخدام المناسبين لهذه الخدمة، وربما لا يرون فيهم كاهنًا، ولكنه ما أن يُدعى إلى الكهنوت ويخدم في مكان آخر حتى يتضح أنه كاهن عظيم. وكثيرًا ما يكون الكاهن الآتي من مكان آخر أكثر قبولًا وهيبة من الكاهن الناشئ في قريته، حيث يكون على مسافة متساوية من الكل، واتضح بالتالي أنه لم تكن له كرامة في وطنه.

وأحيانًا لا تجد الفتاة أو الشاب مكانه أو مكانته داخل الأسرة، بل يجدون التحقير والاستخفاف والشتم أحيانًا، في حين أنه يحوز على حب واحترام الجميع خارج البيت، سواء الذين يمتدحون جمالها أو الذكاء أو قوة الشخصية، أو الاستناد إلى رأيه، ولكنه ليس له كرامة في وطنه.

ويحدث ذلك في الطب حين يعرض الشخص نفسه على طبيب خارج البيت، بالرغم من أن أباه وأمه ربما أطباء مشهورين وموثوق بهم ويأتي إليهم الجميع من كل صوب وحدب، ومثله في ذلك مثل أصحاب محلات الملابس والكثير من المنتجات التي يتهافت عليها الجميع إلا الأولاد والبنات، وينظر الطبيب وصاحب المصنع إلى أولاده قائلًا: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه.

أحيانًا يرى البعيد في الشخص أو المنتج ما لا يراه الأقربون، مثل الأماكن السياحية والآثار والمناظر الطبيعية والنيل والجبل والزرع، قال أحد الزائرين: "هل تشعرون بقيمة هذا؟"، ورددت عليه لم يعد لدينا الوقت لنستمتع بمثل ذلك. ومثلها الأهرام وأبو الهول وغيرها.. ويبدو أن الإنسان يعتاد ما هو فيه من خير وشكل ورائحة.. إلى أن يجيء من يلفت انتباهه.

وقد تعاني فتاة كثيرًا جدًا وهي بين أسرتها، وقد تشعر بالغربة بينهم، وقد لا تحصل على حقوقها كاملة، فإذا تزوجت تنسمت الراحة مع زوج يقدر شخصيتها وإمكانياتها، وتستطيع أن تكوِّن أسرة ربما أفضل من أسرتها، وتنال كرامة لم تنلها بين أفراد أسرتها، ومن ثَمّ ينطبق عليها المثل: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه.

ولكي نكون صادقين ربما سبب عدم الكرامة هو تاريخ غير مُحبَّب مرتبط بالشخص، لخطية أو قضية أو خلاف، ومن هنا يكون من الأفضل أن يبدأ في مكان جديد، فرصة جديدة حيث لا يلاحقه التاريخ السيء، وحتى لا يذكّره المكان بضعفاته، وهذا ليس ضعفًا وإنما حكمة، مثلما يتخذ شخص ما سكنًا جديدًا وعملًا جديدًا وجيران جُددًا، ويحدث ذلك حين يترك أحدهم دولته ليسكن في أخرى.

اِذهَبْ عَنّي يا شَيطان

فأخَذَهُ بُطرُسُ إليهِ وابتَدأَ يَنتَهِرُهُ قائلًا: «حاشاكَ يا رَبُّ! لا يكونُ لكَ هذا!». فالتَفَتَ وقالَ لبُطرُسَ: اذهَبْ عَنّي يا شَيطانُ! أنتَ مَعثَرَةٌ لي، لأنَّكَ لا تهتَمُّ بما للهِ لكن بما للنّاسِ» (مت ١٦:٢٢-٢٣).

عندما نبّه السيد تلاميذه إلى أنه سيُرفض من اليهود ويُسلَّم لأيدي الشيوخ ورؤساء الكهنة، فيصلبونه وفي اليوم الثالث يقوم، أنكر عليه القديس بطرس ذلك، واستكثر أن يأتي على معلّمه الهوان والموت، تمامًا مثلما يقول شخص لآخر: بعد الشر والمرض عنك، أو حاشاك أن تموت أو لأكن أنا عوضًا عنك، أو أن تترك مسئوليتك... مثلما جامل أحدهم أحد الأساقفة قائلًا: "فلان بعيد عنك راح السما"، وهو لا يقصد بالطبع ألّا يدخل الأسقف الملكوت، ولكنه قال بتلقائية ما يعني: "حاشاك أن تموت". الحقيقة أن القديس بطرس كرّر ذلك مرارًا، مثل: «وإن تخلى عنك الجميع أنا لا أتركك... مستعد أن أموت معك...» وقد تبعه بالفعل حتى دار الولاية، غير أننا لم نسمع شيئًا عنه مع بداية المحاكمات المدنية، حتى ظهر من جديد عند القبر بعد القيامة.

وقد عاتب الرب القديس بطرس على أمور ثلاثة، فهو: "مقاوم" (شيطان)، و"معثرة لي"، و"مهتمٌّ بما للناس".

١) **شيطان:** كلمة شيطان في اللغة العبرية ومنها الانجليزية شطن وSatan وتعني المقاوم بشكل عام، وبالتالي قد تُطلَق على أي شخص يقاوم

بغضّ النظر عن مجال المقاومة، وهناك عدة أمثلة لذلك، منها عتاب داود لأبيشاي بن صروية حين طالب بقتل شمعي بن جيرا: «فَقَالَ دَاوُدُ: مَا لِي وَلَكُمْ يَا بَنِي صَرُويَةَ حَتَّى تَكُونُوا لِيَ الْيَوْمَ مُقَاوِمِينَ؟» (٢صموئيل ١٩:٢٢) حيث أتى التعبير "مقاومين" في الآية بمعنى شياطين، كذلك قال سليمان لحيرام ملك صور: «وَالآنَ فَقَدْ أَرَاحَنِيَ الرَّبُّ إِلهِي مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلاَ يُوجَدُ خَصْمٌ وَلاَ حَادِثَةُ شَرّ» (١ملوك ٥:٤)، وتأتي لفظة "خصم" هنا بمعنى شيطان، وغيرها...

ونحن كثيرًا ما نفعل مثل ذلك حين نقول: جاء فلان مثل الشيطان سواء بطلعته أو أفكاره. ويمكن أن نفهم عتاب الرب يسوع للقديس بطرس على النحو التالي حين نقول:

+ **ابعد عني يا شيطان:** بأفكارك هذه، مثل الخيالات الرديئة، فنرشم ذواتنا بعلامة الصليب تلك التي ترعبه، ومن ثَمّ ننتبه لماذا نرشم الصليب عند هذه الحروب. وأفكار الشك: حين يشكّكنا في آخرين أو في أنفسنا. وأفكار الإلحاد حين يوعز إلينا بعدم وجود الله أو أن الله موجود ولكنه غير مهتم بنا. وأفكار الغيرة من الآخرين أو على الآخرين، والحسد والزنى وغيرها.

+ **ابعد عَنّي يا شَيطانُ:** نقولها عندما نواجه أشخاصًا يجرّوننا إلى التهلكة، سواء إلى خطية أو مكان رديء أو الرشوة أو السرقة أو الجريمة بشكل عام... وإن كنا في الواقع في هذه الحالة ننتهر هنا الشيطان الذي يحركهم.

والحقيقة أن هذا ما قصده الرب هنا، فإن كان القصد أن القديس بطرس يُقاوم الفكرة (كما شرحنا معنى كلمة مقاوم)، أو أن الشيطان وضع في قلبه

هـذا الفكـر الـرديء. ونحـن كثيـرًا مـا نقـول لشـخص مـا واصـفين أفكـاره: "شيطانك"!! ونشعر أحيانًا أن البعض قد يتفوّقون على الشيطان في شرورهم!

٢) الشفقة الكاذبة: «تهتم بما للناس وليس بما لله»

لم تكن شفقة القديس بطرس في محلها، بل شفقة يعوزها الحكمة وبُعد النظر. وكثيرًا ما تؤذي الأم أولادها متى أشفقت عليهم بغير حكمة، فعندما يودّ شخص أن يكرّس نفسه لله، فترفض الأم متمسّكة به أو خائفة عليه، فكيف وهو الشاب المثقف والغني يلقي بنفسه في هذه الهوة؟ وقد تحرمه من ذلك وتسبّب له الخسارة. أو عندما تجده يخدم ويساعد آخرين وتشفق عليه بسبب الوقت والمال والجهد، فتمنعه من الخدمة. أو شخص يوعز إلى آخر بالإقدام على شيء خطأ لأجل الناس، إن ذلك من فعل الشيطان "أنت تهتم بما للناس".

٣) العثرة:

هكذا كل من يدفع بآخر إلى الخطية يصبح عثرة له، وكل من يمنع أحدًا في المقابل عن عمل الخير يصبح عثرة له، بذلك نعرف لماذا تراجع البعض عن عمل الخير والاتفاقات النبيلة، هناك شيطان قال له: "حاشاك". والقديس بطرس يمنع بذلك – إذا أطاعه المسيح – عمل الخلاص وفداء الله للبشر.

ثمّة أمر آخر يجب ذكره هنا، وهو أن الكثير ممن حول الرؤساء يمنعونهم كثيرًا من عمل الخير لشعوبهم والاستماع لمطالبهم ومنحهم الحريات من خلال الشفقة الكاذبة، أو الخوف المرضي عليهم، أو لارتباط مصالحهم بوجود الشخص في مكانه، أو من خلال الاستفادة بدكتاتوريتهم.. ولكن الرئيس الحكيم الواعي ينظر إلى أمثال هؤلاء قائلًا "اذهَبْ عَنّي يا شَيطانُ".

نفسي قد اضطربت

ورد عن السيد المسيح أنه قد اضطرب أو انزعج بالروح ثلاث مرات في انجيل القديس يوحنا: الأولى عند إقامة لعازر من الموت: «فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ»(يو ١١:٣٣)، والثانية عند حديثه مع الآب عن آلامه: «اَلآنَ نَفْسِي قَدِ اضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ؟ أَيُّهَا الآبُ نَجِّنِي مِنْ هذِهِ السَّاعَةِ؟. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا أَتَيْتُ إِلَى هذِهِ السَّاعَةِ» (يوحنا ١٢:٢٧)، أمّا الثالثة فعندما أشار إلى مسلمه: «لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ، وَشَهِدَ وَقَالَ:«الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي!» (يوحنا ١٣:٢١).

بداية علينا أن نتذكر أن الطبيعة الناسوتية للسيد المسيح، كانت تتكون من العناصر الثلاثة: جسد ونفس وروح إنسانية، هذا بخلاف اللاهوت المتحد بهذه العناصر معًا، أي اتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، ولم يحلّ اللاهوت محل الروح الإنسانية كما ادّعى بعض المبتدعين، حيث ردّت عليهم الكنيسة وحرمت هذا الفكر، ومن هنا فإن السيد المسيح تألم بالجسد وتألم بالنفس، فإذا جاء عنه أنه اضطرب بالروح فهذا ليس إهانة أو انتقاص من قدرته اللاهوتية، وإنما في الحقيقة هو تأكيد على بشريته، وأن التجسد كان حقيقيًا وليس خياليًا كما ادعى الدوسيتيون، هكذا يقول القديس بولس: «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ» (عب ٤:١٥).

كانت الفلسفة اليونانية تفيد بعدم تألم الله وتأثره أو ضعفه، ولكن القديس يوحنا والذي يرد في إنجيله على البدع اللاهوتية التي ظهرت في أيامه، أكد على إنسانية المسيح كإله متجسد، وليس خيالًا.

ومن هنا نفهم كيف يضطرب السيد المسيح، فبينما الاضطراب إنما يصيب البشر فقط بسبب ضعفهم وقلة إيمانهم، فإن الكلمة كما وردت في النصوص الثلاثة تعني شدة التأثر، أو التفاعل الشديد والتأثر الشديد، وهو أمر مرتبط بالنفس والمشاعر. والتعبير انزعج بالروح: يُقصد به استنفر الروح، ولكنه دخل هذا الصراع بإرادته طوعًا، أو حرك نفسه طواعية باتجاهنا كما يرد في (إش٦٣:٩): «فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ». وقد استسلم المسيح لمشاعر غامرة من الحزن أثرت فيه، إنه في حزنه يذوب حزنًا علينا.

كما أن اللفظة انزعج أو اضطرب تعني "انفعل داخليًا" ولكن ذلك لم يظهر عليه من الخارج، فالمسيح هو إنسان كامل يبكي ويبتسم، يأكل ويشرب وينام ويتألم ويموت، فمن جهة الجسد يأكل وينام ويتألم، ومن جهة النفس يبكي يحزن ويكتئب.

وعن مثل هذا الاضطراب بشريًا هناك إشارات أخرى إلى اضطراب البشر، سواء الاضطراب الناتج عن مفاجأة مفرحة أو الاضطراب كتعبير عن قلق شديد، كما ورد في أكثر من موضع كيف طمأن الرب الجموع وتلاميذه ألا يقلقوا. لا سيّما بخصوص الاحتياجات المادية "ولا تقلقوا..". وعندما قلق التلاميذ بخصوص تركه إياهم قال لهم: «لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي» (يو ١٤:١)، «لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ» (يو ١٤:٢٧).

مثلما قالت عروس النشيد عن عريسها «فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي»، أو عندما نقول نحن عن شخص "اضطربت أحشاؤه فيه" وقد حدث مثل ذلك مع يوسف الصديق، حين اضطربت أحشاؤه فطلب أن يخرج عنه كل إنسان ليبكي بشدة تأثرًا بإخوته «فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ لَدَى جَمِيعِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ فَصَرَخَ: أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي. فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَّفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ» (تك ٤٥:١)، ولما استسمحه إخوته قائلين: «فَالآنَ اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ عَبِيدِ إِلهِ أَبِيكَ». فَبَكَى يُوسُفُ حِينَ كَلَّمُوهُ» (تك ٥٠:١٧).

ومن المحتمل أيضًا أن يكون الاضطراب أمام قبر لعازر حبيبه بسبب تأثر المسيح على لعازر الذي أتى عليه الموت، وعلى اليهود الذين تشكّكوا وقارنوا بين إقامة لعازر وتفتيح عيني المولود أعمى، معتبرين إقامة لعازر عملًا أسهل. فدمعت عينا يسوع، وهنا تعجب اليهود: «اُنْظُرُوا كم كان يحبه».

ونحن أيضًا كثيرًا ما نتأثر ولكننا نضبط أنفسنا، ربما بسبب رغبتنا في عدم الظهور ضعفاء لا سيّما قدام الأطفال، أو لئلا يضعف أولئك الذين يستمدون منا القوة والثبات، هذا يحدث كثيرًا في المواقف الصعبة ونحن أمام جثة في المشرحة، أو حادث على الطريق، أو موقف مؤثر بشكل أو بآخر، فتضطرب قلوبنا من الداخل أو تختلج مشاعرنا، فيتهدج الصوت أو تختنق العبرات.

هكذا يحدث حين تهتز من الداخل بقوة دون أن يشعر الذين حولك، وحين تكون هناك مرارة شديدة داخلك ولكنك لا تقوى على الكلام، وحين تضطر للصمت متى أدركت أنه لا يوجد هناك من يفهمك أو يقدر معاناتك، فيقول الشخص "قلبي يتقطع أو أحشائي تتمزق على كذا".

أو تضطرب أحشاء أم على ابنها فتقول: "قلبي واكلني على فلان"، أو تفرح جدًا ولا تقوى على الضحك أو الزغاريد أو أن تكون الفرحة أكبر من قدرتها على التعبير فتدمع عيناها... وعند قبر لعازر احتاج الأمر جهدًا كبيرًا لضبط النفس.

ولكن الاضطراب المقصود هنا يختلف عن ذلك الاضطراب المرتبط بالشك والحزن وفقدان السلام، مثل اضطراب بطرس الرسول فوق الماء، واضطراب هيرودس وأورشليم معه بسبب ميلاد المسيح «فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ» (متى ٢:٣)، أو اضطراب شخص من لقاء أحد العظماء كما حدث مع أستير: «فأجابت وقالت: إني رأيتُك يا سيدي كأنك ملاك الله، فاضطرب قلبي هيبة من مجدك» (أستير ١٥:١٦).

كما أن هناك نوع من الاضطراب ليس خوفًا أو رعبًا، وإنما اضطراب البهجة كمن يرى الله ومن يرى ملاكًا ومن يرى قديسين، مثلما حدث مع منوح، ومع يوحنا في الرؤيا، وهكذا مع مريم العذراء: «فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ:«مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!» (لوقا ١:٢٩).

«لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا. هذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي» (يو ١٠:١٨).

طوبى لذلك العبد

«اِسهَروا إذًا لأنَّكُمْ لا تعلَمونَ في أيَّةِ ساعَةٍ يأتي رَبُّكُمْ. واعلَموا هذا: أنَّهُ لو عَرَفَ رَبُّ البَيتِ في أيِّ هَزيعٍ يأتي السّارِقُ، لَسَهِرَ ولَمْ يَدَعْ بَيتَهُ يُنقَبُ. لذلكَ كونوا أنتُمْ أيضًا مُستَعِدّينَ، لأنَّهُ في ساعَةٍ لا تظُنّونَ يأتي ابنُ الإنسانِ. فمَنْ هو العَبدُ الأمينُ الحَكيمُ الّذي أقامَهُ سيِّدُهُ علَى خَدَمِهِ ليُعطيَهُمُ الطَّعامَ في حينِهِ؟ طوبَى لذلكَ العَبدِ الّذي إذا جاءَ سيِّدُهُ يَجِدُهُ يَفعَلُ هكذا! الحَقَّ أقولُ لكُمْ: إنَّهُ يُقيمُهُ علَى جميعِ أموالِهِ» (متى٢٤:٤٢-٤٧).

هذا المثل هو واحد من أحاديث الاستعداد الأربعة: مثل العبد الأمين، ومثل العذارى، ومثل الوزنات، ثم الحديث عن المكافأة الأبدية «تعالَوْا يا مُبارَكي أبي...».

الله دعانا أحرارًا «لا أعودُ أُسَمّيكُمْ عَبيدًا... لكني قد سمَّيتُكُمْ أحِبّاءَ» (يوحنا١٥:١٥)، وأبناء «ثِقْ يا بُنَيَّ...» (متى٩:٢)، وأخصاء (خاصتي يوحنا١٠:١٤)، وإخوة «اذهَبي إلَى إخوَتي...» (يوحنا ٢٠:١٧)، وأحباء «ولكن أقولُ لكُمْ يا أحِبّائي: لا تخافوا» (لوقا ١٢:٤)؛ ولكنه نبّهنا إلى أن هذه هبة منه وليست حقًا، فأشار أكثر من مرة إلى العبد الأمين الحكيم، وسمّى أنبياءه عبيدًا «عبيده الأنبياء»، والقديس بولس يفخر أنه «عبد يسوع المسيح». وصرّح الرب أنه إن فعلنا كل البر فنحن «عبيد بطّالون» إنما فعلنا ما قد أُمِرنا به (لوقا ١٧:١٠). والله جعلنا له أبناء بالتبنّي أي هبة منه، وقال إن العبد لا يعرف مشيئة سيده ولكن الابن يبقى إلى الأبد. وعاتب القديس بولس الذين

يـدينون، معتبـرًا أن مـن نـدينهم هـم عبيـد لمـولاهم اللـه، وهـو مسـئول عـنهم (رومية١٤:٤).

وتحدث الرب عن الوكيل، وكيف يودع السيد ثقته فيه، فصار العبد يمثّله وأعطاه سلطانًا ومالًا وعِرضًا، مثلما وكّل فرعون يوسف على كل بيته، ومثلما فعل السيد مع وكيل الظلم. والعبد الأمين يلتزم الأمانة دون رقيب، ولا يسيء إلى سيده الذي وكّله على بيته، ولا يكتفي بأنه غير مُلام من سيده أو مَنْ حوله، وإنما أن يكون أمينًا أمام نفسه وأمام الله الذي يراقبه «كيفَ أصنَعُ هذا الشَّرَّ العظيمَ وأُخطِئُ إلَى اللهِ؟» (تكوين ٣٩:١٠). إن الصفة التي يشترطها كل صاحب بيت وصاحب عمل فيمن يتقدمون للعمل معه هي الأمانة. والعبد الحكيم هو المدبّر، يعرف كيف يمتصّ وكيف يكسب وكيف يدافع عن سيده، كما أن الحكمة سينتج عنها كفاءة في العمل، وحلولًا لمشاكل محتملة. هكذا العبد الحكيم...

وشُبِّه مجيء المسيح بغتة باللص وبالعريس؛ فاللص يباغت فريسته، وعن ذلك قال الرب: «اِسهَروا إذًا لأنَّكُمْ لا تعلَمونَ في أيَّةِ ساعَةٍ يأتي رَبُّكُمْ. واعلَموا هذا: أنَّهُ لو عَرَفَ رَبُّ البَيتِ في أيِّ هَزيعٍ يأتي السّارِقُ، لَسَهِرَ ولَمْ يَدَعْ بَيتَهُ يُنقَبُ. لذلكَ كونوا أنتُمْ أيضًا مُستَعِدّينَ، لأنَّهُ في ساعَةٍ لا تظُنّونَ يأتي ابنُ الإنسانِ» (مَتَّى ٢٤:٤٢-٤٤). كما شُبِّه بالعريس: «وأنتُمْ مِثلُ أُناسٍ يَنتَظِرونَ سيِّدَهُمْ مَتَى يَرجِعُ مِنَ العُرسِ...» (لوقا ١٢:٣٦)، فلو أعلن الرب أن مجيئه سيتأخر لتهاون الناس، ولو قال إنه وشيك لارتعب الناس وتركوا مسئولياتهم وتوقفت الحياة، ولكن إخفاء الوقت كان بتدبير من الله ليكون الناس مستعدين دائما. العجيب أن الناس إذا تهاونوا في البداية قد يصبح

التهاون عادة والتكاسُل اتجاهًا، فلا يقدرون أن ينشطوا لاحقًا حتى لو أرادوا، مثل الذي يفقد المناعة، ومثل الذي يدّعي أنه واعٍ للخمر ولكنه حالما يسكر فلا يعود يملك إرادته.

إذا جاء المسيح بغتة –وهو سيأتي بالفعل بغتة– ماذا يمكن أن يجدك تفعل؟ هل ما تندى له الجبين؟ هل في خطية، في خيانة، في تراخٍ، في مكان غير لائق...؟، أتذكر قصة وردت عن كل من الأنبا تادرس والأنبا أور، إذ كانا يبيّضان قلايتهما، توقفا فجأة ونظر أحدهما للآخر ثم قالا: "تُرى لو أتى المسيح الآن كيف سيجدنا؟!"، ولمّا قالا هذا تركا ما بيدهما متجهين إلى مخدعهما.. وأنت أين يجدك المسيح؟ ومع من؟ وكيف يجدك؟...

إذا فاجئك الله فهل يجدك ساهرًا مستعدا أم متغافلًا؟ قال القديس موسى الأسود: "اسهر لئلّا يفاجئك بمجيئه فيجدك غير مستعد"، وقال الرب في سفر الرؤيا «طوبَى لمَنْ يَسهَرُ ويَحفَظُ ثيابَهُ...» (رؤيا ١٦:١٥)، ويصلي كثيرون قائلين لله: "لا تأخذني في ساعة غفلة"، وداود النبي يقول «مستعدٌ قلبي يا الله، مستعدٌ قلبي» (مزمور ٥٦ قبطي).

إذا فاجأك شخص ما، ماذا سيجدك تفعل؟ عاريًا، أم تغنّي، أم تخطئ، أم تسلك بشكل طبيعي؟ لقد تسلّمنا أن وزن الشخص الحقيقي يكون وهو بمفرده وليس وهو أمام الآخرين، فقد يتوخّى الإنسان الحذر وهو في حضرة الآخرين، أو كما يُقال إنه يبدو في ثياب أكبر من حجمه، ولذلك أتذكر أن أحد آباء الرهبنة وهو القديس تادرس الفرمي، طلب إلى تلميذه قائلًا: «إن أتى إنسانٌ يريد رؤيتي، فلا تقل له شيئًا وعظيًا، بل إن كنتُ آكل، فقل له: إنه يأكل، وإن كنتُ نائمًا، فقل له: إنه نائم. وإن كنتُ أصلي، فقل له: إنه يصلي».

وإذا جاء الرب هل يجد الخادم هكذا؟ فقد ائتمنه على مخدومين، سواءً أكان أبًا أسقفًا أو كاهنًا أو خادمًا، وسيطلب منه حساب الوكالة، هكذا فاجأ السيد وكيله في مثل وكيل الظلم.. يمكن ن يسأله: كم افتقدت؟ وكم عالجت؟ وكم ناولت؟ وكم سدّدت احتياجات؟ هناك أشخاص لهم مواعيد ومواقف فقط، وهناك أشخاص حياتهم كلها عمل، فمتى جاء سيده في أي وقت يجده ساهرًا ومستعدًا، هذا ما قصده الرب حين قال عن ذلك العبد إنه «يعطي عبيده طعامهم في حينه».

قرأت عن القديس الأنبا أبرآم أسقف الفيوم أنه فعل هكذا مع الخدام المنوطين بإطعام الفقراء، فقد سمع أنهم لا يعاملونهم معاملة جيدة، ومن ثَمّ تخفّى بينهم كأحد الفقراء، ورأى سوء المعاملة بنفسه، واحتفظ بما أعطوه له من رديء الطعام ليعاتب الخدم فيما بعد، ولما أنكروا أطلعهم على الحقيقة، وفي هذا لا ينطبق عليهم القول: «طوبى لذلك العبد الذي يعطي عبيده طعامهم في حينه».

وجاء في سيرة القديس باخوميوس أب الشركة أنه وبينما كان يستعد لسفر طويل، كلّف راهبًا بالاهتمام بإخوته من جهة إعداد الطعام لهم وِفقًا لبرنامج محدّد، فلما عاد من السفر اشتكى له البعض من أن الراهب المُكلَّف لم يفعل ما أمره به، فاستحضره من ثَمّ واستفسر منه عن ذلك، فأجابه بأنه إنما أراد أن يتعلم الرهبان النُسك فيكتفون بالبقول والخبز اليابس، بينما يستثمر هو وقت إعداد الطعام في عمل اليد، وهذا ينفع الدير بثمنه! فلما سمع الأب الكبير ذلك طلب من الراهب أن يحضر جميع ما أتمّه من عمل اليد، وأمام الجميع قام بإحراق السلال جميعها، ثم التفت إلى الراهب وقال له: "إنك بما فعلته قد

أبطلتَ الثمرة الطبيعية التي للنسك"، ومن ثَمّ لا ينطبق على الراهب هنا «طوبى لذلك العبد الذي يعطي عبيده طعامهم في حينه».

ومن أمثلة الذين جاء سيدهم ولم يجدهم يفعلون هكذا (كما كلّفهم) وكيل الظلم، فقد تركه سيده ليهتم بالأرض من جهة، ويرعى مصالح الأجراء من جهة أخرى، فأهمل الأرض بينما ثقّل يده على الفلاحين المساكين، فلما وشوا به باغته السيد وعاتبه، وبدلًا من أن يقول له: طوبى لك، قال له: «ما هذا الّذي أسمَعُ عنكَ؟ أعطِ حِسابَ وكالَتِكَ لأنَّكَ لا تقدِرُ أنْ تكونَ وكيلًا بَعدُ» (لوقا ١٦:٢)، وهكذا طُرِد من الوكالة.

المشرف (supervisor) أو المراقب، وهو يفاجئ العاملين معه بين وقت وآخر، مثل مندوبي الدعاية والذين يعتمدون على الثقة في تعاملهم، لأنهم لن يراقبوه في كل زيارة، بل يعتمدون على التقارير التي يرفعها العامل لرئيسه، فإذا اكتشف الرئيس عدم صدق المندوب ولو مرة واحدة وعن طريق الصدفة، فإنه قد يقيله، والسبب أنه من المحتمل أن يكون هذا نهجه طالما كذب ولم يستأذن أو يستعفي.

من هنا فقد يفاجئ المسئول موظفيه دون سابق إنذار حتى لا يستعدوا عند مجيئه فقط، وإنما يكونون أمناء ومستعدين دائمًا؛ مثلما كان بعض الملوك يفاجئون الذين يولّونهم على الناس حتى يطمئنوا أنهم لا يظلمونهم ويثقّلون عليهم بالضرائب والمظالم وغيرها، فيتخفّى الحاكم بين الناس ليرى بنفسه كيف يعاملهم الوالي المحلّي. لقد كان الرعاة في كثير من الأحيان يأكلون ويمرحون، وقبل مجيء صاحب البيت يحسّنون سيرتهم مع العبيد ليتلافوا الشكوى ضدهم، والتاريخ مليء بعشرات القصص الطريفة والمأسوية في هذا الإطار.

وإذا عاد الزوج ليجد زوجته في انتظاره، والمسكن نظيفًا مرتبًا، والطعام مُعَدًّا، والأولاد في هيئة نظيفة، استذكروا دروسهم وتناولوا طعامهم، لا شك أن ذلك يسعده ويستحق المكافأة (لقد وجدها تفعل هكذا..)، بعكس لو جاء ليجدها تثرثر مع الجيران، أو نائمة، أو أمام التلفزيون، أو تهتم بمظهرها فقط على حساب مسئولياتها الأخرى. أو تعود ربّة البيت لتجد خادمتها وقد أهملت الاولاد لتحكي مع خادمة أخرى أو شخص تعرفت عليه، هذه جاء سيدها ليجدها لا تفعل هكذا...

حدث مثل ذلك مع نابوليون بونابرت، فحين كان يطوف بين الجنود في حراساتهم ذات ليلة وجد أن أحد الضباط نائم وإلى جواره جندي ساهر متيقظ، فانحنى القائد على الضابط بهدوء وسحب الرتبة من على كتفه ثم علقها على كتف الجندي، فلما استيقظ الضابط وفوجئ بما حدث، اتجه إلى القائد الكبير ليعتذر له، فقال نابوليون جملته الشهيرة إن "الجندي الساهر أولى بالرُتب من الضابط النائم".

وفي حراسات الهيكل كانت هناك كتيبة من الجنود تابعة للهيكل يشرف عليها رئيس الكهنة، فإذا وجد جنديًا ليس في مكان حراسته فإنه يُعاقَب بأن تُحرَق ملابس خدمته في وجود بقية الكتيبة ويُعفى من الخدمة ويُعاقب، وربما كان هناك اشارة الى ذلك فيما ورد في سفر الرؤيا «ها أنا آتي كلِصٍّ! طوبَى لمَنْ يَسهَرُ ويَحفَظُ ثيابَهُ لئَلّا يَمشيَ عُريانًا فيَرَوْا عُريَتَهُ» (رؤيا ١٦:١٥). من هنا يأتي التفتيش المفاجئ، ومن هنا يأتي شعار الكشافة: "كن مستعدًا".

ما يوجد فيه الإنسان يؤخذ: نبّه السيد المسيح أنه عند خراب الهيكل سيؤخذ الواحد ويُترَك الآخر، مثل اللتين تطحنان على الرحى والذي في الحقل،

وغيرهم: «كذلكَ يكونُ أيضًا مَجيءُ ابنِ الإنسانِ. لأنَّهُ كما كانوا في الأيّامِ الّتي قَبلَ الطّوفانِ يأكُلونَ ويَشرَبونَ ويَتَزَوَّجونَ ويُزَوِّجونَ، إلَى اليومِ الّذي دَخَلَ فيهِ نوحٌ الفُلكَ، ولَمْ يَعلَموا حتَّى جاءَ الطّوفانُ وأخَذَ الجميعَ، كذلكَ يكونُ أيضًا مَجيءُ ابنِ الإنسانِ. حينَئذٍ يكونُ اثنانِ في الحَقلِ، يؤخَذُ الواحِدُ ويُترَكُ الآخَرُ. اِثنَتانِ تطحَنانِ علَى الرَّحَى، تؤخَذُ الواحِدَةُ وتُترَكُ الأُخرَى. اِسهَروا إذًا لأنَّكُمْ لا تعلَمونَ في أيَّةِ ساعَةٍ يأتي رَبُّكُمْ» (مَتَّى٢٤:٣٧-٤٢).

وسمعت عن أب أنه في كل مرة يخرج يضع في قلبه قبل الخروج أنه لن يعود مُجدَّدًا، كان له في نفسه حُكم الموت. سأل أخٌ الأب شيشوي قائلًا: «ماذا أفعلُ يا أبتاه، فقد سقطتُ»؟ قال له الشيخُ: «انهض أيضًا». قال الأخُ: «نهضتُ ورجعتُ وقعت». فأجابه الشيخُ: «انهض أيضًا». فقال الأخُ: «إلى متى أيها الأب»؟ قال له: «إلى أن نؤخذ، إما في الخير وإما في السقطةِ، لأن الإنسانَ فيما يوجد فيه يؤخذ».

وقال آخر: «لا يوجد شيءٌ أصعب من العادةِ الرديئةِ، إذ يحتاجُ صاحبُها في سبيلِ قطعِها إلى زمانٍ وتعبٍ كثير، أما التعبُ فهو في متناول الكثيرين، ولكن الزمانَ الذي يحتاج إليه فما أقلَّ من قضاه حتى النهايةِ، لأن أكثرَ أصحابِها اختطفهم الموتُ قبل تمامِ زمانِ قطعِها، والله وحدُه هو الذي يعلمُ كيف يدينهم».

وجاء في الأساطير أن ثلاثة شياطين جاءوا إلى أرضنا ليكملوا تدريبهم. قال الأول لرئيسه: "سأكرز للناس بأنه لا إله"، فرد عليه بإنهم لن يصدقوه. وقال الآخر: "سأكرز أنه لا جهنم"، فأجابه هم يعرفون أن هناك جهنم. وأمّا الثالث فقال: "سأكرز لهم بأنه هناك متسع من الوقت" (سيدي يبطئ قدومه)، فأجابه اذهب فإنك ستحصد ألوف ألوف...

تصوروا في المقابل: أب لم يبخل على ابنه بأي شيء، كل طلباته مجابة، سواء بالدروس الخاصة أو الثياب والحلوى والهدايا والجو المُهيَّأ، والأموال الطائلة والأعصاب التالفة، فلما دخل على ابنه حجرته فلم يجده يستذكر دروسه، وإنما يلعب أو يدردش مع أصدقائه على مواقع التواصل الاجتماعي أو يحادث آخرين بالتليفون.. بماذا يشعر ذلك الأب إذ لم يجده يفعل هكذا..؟

تليفونك–صفحتك–دولابك–درجك: ماذا لو تم مفاجأة هذه؟ إن رسالة واحدة تجدها زوجة أو زوج على تليفون الآخر كفيلة بأن تهدم أسرة وتجرّ إلى المحاكم. لست أقول أن تخطئ وتكون حريصًا فلا تنكشف خطيتك، كلّا! وإنما لا يكن هناك ما تُلام بسببه أصلًا، لا أمام الله ولا أمام الناس، أو يتسبب في مشكلة لك. لتكن صفحاتك ناصعة وشريفة، لا صور ولا مكالمات ولا ما تستحق اللوم بسببه. أتذكر أن شخصًا تُوفي، فأخذ صديقه الجهاز الخاص به ومحا منه كل ما ينسب له فضيحة. وأتذكر أن شابًا نبيلًا آخر، بينما كان يكفّن رجلًا مسنًا، بحث في شقته ووجد أشياء قد تسيء إلى تاريخ الرجل، ومن ثَمّ تخلص منها دون أن يعرف أحد.

أرى أن يمارس الإنسان حياته بشكل لائق، وليأتِ المراقب أيًّا كان اسمه أو صفته، ليجده شريفًا نبيلًا مستعدًا، بل ليسلك الإنسان حسبما يليق دون التحسُّب لمباغتة أو مراقبة، حتى لو لم يزره أو يفاجئه أحد، لأنه يوجد البعض ممن لا رقيب عليه ولا مسئول فوقه، ولكن الضمير –ولا سيما المرتشد بالروح القدس– هو الرقيب الدائم، كما أن هناك محاسبة في النهاية من الله. وهناك عبارتان في غاية الأهمية في هذا الصدد سوف نسمع إحداهما يوم الدينونة،

إمّـا «تعـالوا إلـيَّ... رثـوا المُلـك المُعَـد...»، وإمّـا «ابعـدوا عنـي إلـى النـار الأبدية...».

أخيرًا.. كن ساهرًا وشدِّد ما بقي: إن كنتَ قد أضعتَ سني حياتك في أمور بعيدة عن خلاصك، وتسرّبت منك السنون كما يتسرب الماء من بين الأصابع، «كُنْ ساهِرًا وشَدِّدْ ما بَقيَ، الّذي هو عَتيدٌ أنْ يَموتَ، لأنّي لَمْ أجِدْ أعمالكَ كامِلَةً أمامَ اللهِ» (رؤيا٣:٢).

الطيب واكرام القديسين

عندما تذمّر البعض على المرأة والمسيح بسبب سكب الطيب، عاتبهم الرب على تبكيتهم لها، وقال لهم إنها فعلت ذلك لتكفينه، فقد تعجّل يوسف ونيقوديموس في دفن المسيح ومن ثَمّ لم يكفِّناه كما يليق به. وقد أوصى الرب بأن يُذكَر للمرأة ما فعلته تذكارًا لها، وهو ما يبدأ به الكاهن مجمع القداس حين يقول: "لأن هذا يا رب هو أمر ابنك الوحيد، أن نشترك معًا في تذكار قديسيك". وكما قدم المسيح نفسه عنّا طيبًا «كما أَحَبَّنا المَسيحُ أيضًا وأسلَمَ نَفسَهُ لأجلِنا، قُربانًا وذَبيحَةً للهِ رائحَةً طَيِّبَةً» (أفسس٥:٢)، هكذا أُعتُبِر دم الشهداء وفضائل القديسين من دموع وأعراق بمثابة طيب قُدِّم للمسيح، يستحقون من أجله أن يُذكَروا هم أيضًا في مجمع التسبحة والقداس.

وقد أُعتُبِرت الصلاة والعبادة بخورًا وطيبًا، هكذا قال داود النبي: «لتَستَقِمْ صَلاتي كالبَخورِ قُدّامَكَ. ليَكُنْ رَفعُ يَدَيَّ كذَبيحَةٍ مَسائيَّةٍ» (مزمور ١٤١:٢). وفي صلوات نصف الليل يُقرَأ الإنجيل الخاص بسكب الطيب (لوقا٧) في إشارة إلى الدينونة وتقديم الجهادات والأعمال "يأتي الشهداء حاملين عذاباتهم، ويأتي الصدِّيقون حاملين فضائلهم" (ختام الثيئوتوكيات الواطس). ونحن في تكريمنا للشهداء والقديسين نطيِّب أجساهم ورفاتهم بالعطور، وكان من بين تقدمات الشعب في الكنيسة الأولى العطور، حتى أننا نجد ذكرًا للعطور في الأواشي القديمة، وما يزال بعض الناس يأتون بالعطور ليكرّموا بها الأجساد سواء وهي في مقصوراتها أو أثناء المرور بها في دورات تمجيد القديسين، وكذلك العطور والحنوط المُستخدَمة في طقس الدفنة؛ وأقترح أن يتم توزيعها

علـى العـائلات حتـى يتبـارك الجميـع بـذلك. وفـي إكرامنـا للقديسـين مـن خـلال التطييـب تأكيـد لمـا قالـه الـرب أن مـن تـرك شـيئًا لأجلـه يأخـذ مئـة ضـعف (متـى١٩:٢٩؛ مـرقس ١٠:٣٠)، وهكـذا قـال الـرب: «أُكـرِمُ الّـذينَ يُكرِمـونَني» (١صموئيل ٢:٣٠).

والطيب والطيبة من مصدر واحد، وعملها هو بعث الراحة في المكان، ونقول: "فلان طيّب" أي مريح، ونقول "طَيَّبَ خاطره" أي أراحه وعزّاه، ومثلها الروائح والراحة، حتى أن الطبيب أخذ الاسم من الطيبة والراحة التي يبثّها في أنفس المتعبين، والمسيح هو الطبيب الحقيقي، وقال القديس بولس: «ولكنـي قد استَوْفَيتُ كُلَّ شَـيءٍ واستَفضَـلتُ. قد امتَلأتُ إذ قَبِلـتُ مِـنْ أبَفرودِتُسَ الأشـياءَ الّتـي مِـنْ عِنـدِكُمْ، نَسـيمَ رائحَـةٍ طَيِّبَـةٍ، ذَبيحَـةً مَقبولَـةً مَرضـيَّةً عِنـدَ اللـهِ» (فيلبي٤:١٨).

ولا يفوتنـا أن نـذكر هنـا أنـه مطلـوب منّـا أن نكـون رائحـة المسـيح الزكيـة التي تشيع الراحة والبهجة والرجاء في النفوس «لأنَّنا رائحَةُ المَسيحِ الذَّكيَّةُ للهِ، في الّذينَ يَخلُصونَ وفي الّذينَ يَهلِكونَ» (٢كورنثوس٢:١٥).

ربمـا نـدرك الآن لمـاذ يُعَـدُّ الطيـب والعطـور أشـهر الهـدايا المُتبادَلـة بـين الناس، إنها الرغبة في التخفيف عن الآخرين ومنحهم بعض الراحة...

قَارُورة الطيب "١"

ثُمَّ قَبلَ الفِصحِ بِستَّةِ أيّامٍ أتَى يَسوعُ إلَى بَيتِ عنيا، حَيثُ كانَ لعازَرُ المَيتُ الّذي أقامَهُ مِنَ الأمواتِ. فصَنَعوا لهُ هناكَ عَشاءً. وكانتْ مَرثا تخدِمُ، وأمّا لعازَرُ فكانَ أحَدَ المُتَّكِئينَ معهُ. فأخَذَتْ مَريَمُ مَنًا مِنْ طيبِ ناردِينٍ خالِصٍ كثيرِ الثَّمَنِ، ودَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسوعَ، ومَسَحَتْ قَدَمَيهِ بشَعرِها، فامتَلأَ البَيتُ مِنْ رائحَةِ الطّيبِ. فقالَ واحِدٌ مِنْ تلاميذِهِ، وهو يَهوذا سِمعانُ الإسخَريوطيُّ، المُزمِعُ أنْ يُسَلِّمَهُ: «لماذا لَمْ يُبَعْ هذا الطّيبُ بثَلاثَمِئَةِ دينارٍ ويُعطَ للفُقَراءِ؟». قالَ هذا ليس لأنَّهُ كانَ يُبالي بالفُقَراءِ، بل لأنَّهُ كانَ سارِقًا، وكانَ الصُّندوقُ عِندَهُ، وكانَ يَحمِلُ ما يُلقَى فيهِ. فقالَ يَسوعُ: «اترُكوها! إنَّها ليومِ تكفيني قد حَفِظَتهُ، لأنَّ الفُقَراءَ معكُمْ في كُلِّ حينٍ، وأمّا أنا فلَستُ معكُمْ في كُلِّ حينٍ». (يو١٢:١-٨).

إنها اللفتة الطيبة التي هدّأت من سرعة أحداث القبض على الرب ومحاكمته وصلبه، نقطة ماء باردة في قيظ الخيانة والتآمر والتربُّص، سواء من التلميذ الخائن أو رؤساء الكهنة والفريسيين. وتشير إلى بادرة بعض البسطاء من الناس للتخفيف عن الراعي وتعويضه عن الآلام التي يكابدها خلال اليوم، وربما تذيب المرارة التي في حلقه من بعض الأخصّاء. إنها قارورة الطيب بعطرها الذي يردّ على عفونة الخيانة، إنها الهدية التي نالت استحسان الرب واستحقت مكافأة لم تحلم بها مريم.

الناردين nard, nardin: هو نوع من الطيوب، يُسمى أيضًا النرد، ويُستخلص من نبات صغير الحجم ينبت بكثرة في جبال هيملايا على ارتفاع

عالٍ. ويُقال من شجرة تُسمى ناردو ستاشيز، تنمو في الهند. وقد استخدمه الهنود قديما كدواء، كما استعملوه طيبًا، وكان إحدى السلع التجارية الهامة. وذُكِر الناردين بين الأطياب التي حملتها عروس سليمان (نشيد ١٢:١ و١٣:٤ و١٤). والناردين غالي الثمن.

وأما عن ثمنه، فالقديس متى أشار إلى أنه كثير الثمن، وقال القديس مرقس في إنجيله: «وَكَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هذَا؟ لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ». (مرقس ٣:١٤)، لأن الثلاثمائة دينار هي مجموع أجر عامل لمدة سنة كاملة (أعطى الفعلة دينارًا دينارًا). وإذا كانت مائتي دينار كافية لإطعام خمسة آلاف رجل (يوحنا ٧:٦)، فكم بالأحرى ثلاثمائة دينار...

هل أرادت مريم أن تعبر عن محبتها وامتنانها للمسيح بعد إقامة لعازر، ورأت في هذه الطريقة سبيلًا للتعبير عن شكرها؟ مثلما يقيم البعض حفل عشاء لشخص قدم إحسانًا أو خدمة جليلة. لقد كان السيد السيح كثير التردد على ذلك البيت (بيت لعازر ومريم ومرثا)، في قرية بيت عنيا، فنقرأ كثيرًا أنه ذهب هناك: «وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً» (يوحنا ١٨:١١)، وإذا أراد أن يستريح: «ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَخَرَجَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا وَبَاتَ هُنَاكَ» (متى ١٧:٢١)، «وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضًا وَهُوَ لِعَازَرُ، مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا» (يوحنا١:١١)، «فَدَخَلَ يَسُوعُ أُورُشَلِيمَ وَالْهَيْكَلَ، وَلَمَّا نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ كَانَ الْوَقْتُ قَدْ أَمْسَى، خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ» (مرقس ١١:١١)، «وَفِي الْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنْيَا جَاعَ» (مر ١٢:١١)، وعند الصعود: «وَأَخْرَجَهُمْ خَارِجًا إِلَى بَيْتِ عَنْيَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَهُمْ» (لوقا ٥٠:٢٤).

هل يجد الآب الكاهن بعضًا من البيوت من يستريح فيها، يثق بسكانها، يتحدث مع أهلها؟ هل هناك من يهتم باحتياجاته، أليس هو إنسانًا، هل تقيّدت حريته؟ هل يمكن أن نفرّق بين التزامه وعدم محاباته أو التفريق في المعاملة، وأن له احتياجًا شخصيًا؟ وإن كان هذا الأمر مرفوضًا من الكثير من الآباء، إلّا أنه يحدث كثيرًا عندما تبادر بعض من الأسر أو الأفراد إلى تسديد بعض الاحتياجات، والسؤال الصادق عن الأب، وذلك مع ضمانات هامة منها ألّا تسرد أسرار الناس أمامهم، وإلّا يستغلوا هم ذلك بحيث يمكن تحقيق بعض المكاسب من خلالهم، أو الوشاية بآخرين. إن البعض يساعدون الكاهن دون مقابل أو تدخل في شئون خدمته.

وفي عبادتنا يجب ألّا أن نقدم لله كلامًا جميلًا فقط، وإنما تقدمات أيضًا نكرمه بها، فالبخور هو طيب (وأتذكر كيف أن مثلث الرحمات البابا شنوده ألحّ في السنة الأخيرة له في البخور العطر، وكنا نتعجب لماذا؟! ثم انتبهنا إلى أنه ربما يشير إلى تقديم الطيب للمسيح). وهناك من يحضر سترًا للهيكل، أليس ستر الهيكل ثيابًا للمسيح؟! والشموع، واللفائف، والعطور لأجساد القديسين، والحنوط ولوازم الدفنة في الجمعة الكبيرة أو تضميخ شهداء الكنيسة وقديسيها، واحتياجات اللقان، والسعف لأحد الشعانين، وغيرها (أقترح تقسيم كل هذا على العائلات بحيث تتبارك واحدة منها بكل مناسبة.. وهكذا..).

ولكن يوجد البعض من الناس يعترضون على أعمال التكريم لله وقديسيه، ويرون أنها "إتلاف" مثلما رأى التلاميذ ويهوذا، مثل انتقاد التعمير أو إمداد الكنيسة بالأجهزة، أو الزينة اللائقة، أو فرش أو إضاءة الخ... فينكرون على الله ذلك. ويرى البعض أنه عمل غير منطقي، لكنه عمل محبة. ولكن يبدو

أن عمل المحبة لا يتماشى مع الحسابات المادية المنطقية، فلم تخضع محبة المسيح لنظام المنطق البشري، فقد أخلى نفسه، ونزل إلى عالمنا آخذًا صورة عبد، ومات بدلًا عنا ليهبنا حياة أبدية.. رغم شرورنا ولكنه عمل محبة، لقد قدم ذاته طيبًا ورائحة سرور على الجلجثة.

ولكن لماذا سلكت مريم على هذا النحو؟

إنها لم تسلك هكذا لتتظاهر أو تتجمل أو تُظهر غناها أو تلفت النظر، كلّا! وإنما لتكرم الرب، وكان علي مريم أن تستخدم قارورة الطيب في يوم عرسها بحسب التقليد اليهودي، ولكنه سكبته على رأس المسيح وقدميه لتعلن محبتها له وولاءها لشخصه، واختيارها للمسيح عريسًا لها أمام جميع الحضور. وبسبب ذلك خرج عنها صيت حسن وشهادة نادرة من فم الرب يسوع: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًا بِمَا فَعَلَتْهُ هذِهِ، تَذْكَارًا لَهَا» (مرقس ١٤:٩). شهادة الرب هذه تتردد دائما في عظاتنا وكتاباتنا، فإن هذا هو النصيب الصالح الذي نالته أن تُكرَّم في كل الأجيال، وفي أيّة كنيسة وأيّة كرازة باسم الرب نعلن فيها كيف نحبه ونفتخر به ونكرمه.

والصيت كلمة ذكرت في الكتاب المقدس سبع مرات في مواضع مختلفة، وقد ذكرها سليمان الحكيم في سفر الأمثال: «اَلصِّيتُ أَفْضَلُ مِنَ الْغِنَى الْعَظِيمِ، وَالنِّعْمَةُ الصَّالِحَةُ أَفْضَلُ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ» (أمثال ٢٢:١)، ومرة أخري في سفر الجامعة «اَلصِّيتُ خَيْرٌ مِنَ الدُّهْنِ الطَّيِّبِ، وَيَوْمُ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِ الْوِلاَدَةِ» (جامعة ٧:١). ونلاحظ هنا المقابلة الرائعة بين الآية والحدث، فالصيت الذي نالته مريم بفعلها أثمن بكثير من الطيب الذي ضحت به، كما أنها قدمته ليوم ممات المسيح «الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ» (فيلبي ٣:٨).

ما هو قيمة ما فعلته المرأة؟

إنها ليست مجرد قطرات من العطر، كلّا! وإنما فيض محبة، ومشاعر رائعة عبرت عنها بالعطية. إن هدايانا هي تعبير عن محبتنا للآخر بغض النظر عن ثمنها وقيمتها، صورة بسيطة أو كلمة رقيقة.. مساعدة بسيطة.. سؤال.. زيارة أو دفاع عن شخص، أو كلمة حق أو تشجيع.

والذي فاح ليس حضورها وإنما عملها، وفاح من قِبَل الرب وليس بتدبيرها.. هنا ونقول إن البعض مضطرون للعمل جهارًا ولابد من أن يُكشَف عملهم بعكس آخرين، ولكن الفيصل في الحالتين هو الدافع والغرض، وهذا يعلمه الله. والله عندما أمر بمكافأة أبدية كان يقنّن هذا العمل ويعطيه شرعية ويشجع عليه. أي أنه لم يرفض عمل المحبة. ولأنها لمست رأس فادي البشرية كوفئت هكذا. هذا الرأس الذي أُهين لاحقًا بالشوك والضرب بالقصبة والبصق عليه ولطمه، ولأنه من الرأس ينزل على الرجلين كقول المزمور، هكذا أكرمت الجسد كله.

والتقدمة في حد ذاتها عظيمة، ولكن الأعظم منها هو تلك المشاعر التي حركتها لتسلك هذا السلوك، مثل هذا العمل قدمه أهل فيليبي للقديس بولس وشعر بامتنان كثير لأجله وتأثر به كثيرًا.

وهذه المرأة قدمت طيبًا ثمينًا، ولكن قيمته ليست في رائحته وثمنه، كلّا! وإنما في معناه.. إنها السيدة التي استحقت تكفين جسد الرب، حيث لم تكن هناك فرصة لتكفينه كما يجب نظرًا لاقتراب السبت حيث لا يجوز العمل، كما أنه يجب ألا تبقى الأجساد إلى اليوم التالي، وأمّا الحنوط التي جاء بها يوسف

ونيقوديموس فهي غير الطيب. ومهما يكن من ثمن للأكفان والحنوط، فإنها لا تساوي الطيب الناردين والذي هو ليس للتكفين. عن ذلك قال الرب: «فَإِنَّهَا إِذْ سَكَبَتْ هذَا الطِّيبَ عَلَى جَسَدِي إِنَّمَا فَعَلَتْ ذلِكَ لأَجْلِ تَكْفِينِي» (مت٢٦:١٢). «عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ» (مر ١٤:٨).

ويُقرأ هذا الفصل ليلة الأربعاء من البسخة المقدسة، ليقابل ما فعله يهوذا بالسيد المسيح. العجيب أن مريم لم تكن من تلاميذ المسيح بمعنى أنه لم يخترها ضمن الاثني عشر، ولم تلازم الرب مثلما كان يهوذا، ومع ذلك هناك تناقض بين سلوك الاثنين، مثلما نجد هذا التناقض بين إنكار بطرس وشجاعة المريمات، خوف التلاميذ بعد الصلب وشجاعة يوسف الرامي في طلب الجسد المقدس من بيلاطس. وغيره من المواقف التي يشهد فيها بعض البسطاء للرب أكثر من خاصته وخدامه.

إن هذا الطيب هو اعتذار تقدمه البشرية لله، البشرية التي قدمت يهوذا برائحة الخيانة النتنة، هي ذاتها تقدم مريم بطيبها ونارديها، وكان عمل مريم آخر عمل محبة قدمته البشرية للمخلص وهو بيننا بالجسد، وقُدِّم كذلك في وقت يتآمر فيه الكتبة والفريسيون على الرب.

عجيب أمر يهوذا:

إن لم يكن يفعل خيرًا فليقف إذًا موقف المحايد! وهل يدافع عن الفقراء حتى يحركه قلبه نحوهم؟ إنه سارق، يسرق ما يوضع في الصندوق (تعبير "يحمل ما يوضع فيه" تعني يحمله بعيدًا.. أي يسرق). وهل أراد بإشارته الخبيثة هذه أن يطعن مريم بأن يبكتها بالفقراء، إذ لم يقل نقدم ثمن الطيب

للهيكل أو نبني بها منزلًا للرب، أو نعدّ ما نحتاجه للعيد، بل للفقراء؟!! ثم ألم يكن المسيح فقيرًا منذ الولادة ولم يجد أين يسند رأسه..!

مكافأة الرب لها:

الرب الذي طمأننا أنه ليس بظالم حتى ينسى تعبنا وعمل المحبة «لأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ حَتَّى يَنْسَى عَمَلَكُمْ وَتَعَبَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَظْهَرْتُمُوهَا نَحْوَ اسْمِهِ، إِذْ قَدْ خَدَمْتُمُ الْقِدِّيسِينَ وَتَخْدِمُونَهُمْ» (عبرانيين ٦:١٠)، هو ذاته الذي قرر أنه حيثما يُكرَز بالإنجيل يُخبَر أيضًا بما فعلته هذه المرأة تذكارًا لها، ولعل هذا التذكار هو المقصود في مدخل المجمع في القداس "لأن هذا يا رب هو أمر ابنك الوحيد الجنس أن نشترك في تذكار قديسيك" (كما أسلفنا)، وهكذا نشير في تلك التذكارات إلى "طيب المرأة" وإلى "طيب جهاد القديسين"، ولذلك يُقرأ الإنجيل لساكبة الطيب في كل مرة نحتفل بتذكار نياحة راهبة أو حبيسة: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًا بِمَا فَعَلَتْهُ هذِهِ تَذْكَارًا لَهَا» (متى ٢٦:١٣).

فصول ساكبة الطيب تتلى ٢٧ مرة خلال السنة حيث تأتي مع كل سير النبيات والقديسات. يُتلى الفصل حسب القديس متى: في شهر توت ٤ مرات، وبابه مرتين، وهاتور مرة، وطوبه ٣ مرات، وبرمهات مرتين، وأبيب مرة، ومسرى ٤ مرات، وكيهك مرة، والساعة التاسعة من أربعاء البسخة. وأمّا بحسب القديس مرقس: ففي شهر توت مرة، وهاتور مرة، وكيهك مرة، وأمشير مرة، ومسرى مرة، وعشية الأحد الأول من كيهك، والساعة ١١ من ليلة ثلاثاء

البسخة، والساعة الثالثة من ليلة خميس العهد.. لتذكرنا الكنيسة أن كل من هؤلاء القديسات قدمن طيبهن (أي الجهادات) للمسيح حبًا وعشقًا فيه، واستحققن الذكر والذكرى مثل مريم هذه.

ونتعلم من الرب في رد فعله لهذا السلوك، كيف نجامل الذين يعطوننا، بأن نعتبر التقدمة غالية وثمينة، وأننا كنا في احتياج إليها، وأنها تروق لنا، وأننا كنا بانتظارها، وأنها أجمل أو من أجمل ما تلقيناه من هدايا الخ... (أي نستسمن المحرقات كما قيل عن الرب في المزمور).. وهكذا ما رآه البعض إتلافًا، رآه الرب عين الفائدة ومبلغ العطاء.

وننتبه أيضًا إلى أن يوسف ونيقوديموس جاملا الرب بعد موته ولكن هذه في حياته، كان الرب محتاج إلى القليل مما قدمه يوسف ونيقوديموس وهو حي... تعلم ألا تؤجل المجاملة. نعاني في مصر من مثل ذلك، أي تقدير العلماء والنوابغ ولكن بعد موتهم، وكانوا أحوج ما يكون لليسير منه وهم أحياء.

«اتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟»:

دافع عنها الرب مثلما يدافع عن أي شخص يقدم شيئًا، ولم ينكر ذلك. وقد يتحجج البعض بأن الفقراء أهم، ولكن يجب أن نفعل هذه ولا نترك تلك، بل أن تعبير «الفقراء معكم كل حين» يعني أن خدمتهم قائمة باستمرار، أمّا هذه اللمسات فهي هامة جدًا في الخدمة وتضاعف من عمل الراعي، لأن شعوره بالتقدير من الآخرين يجعله يمتنّ، وأمّا عن الفقراء فإنهم لن يختفوا ولن ينتهوا «أَنَّهُ لاَ تُفْقَدُ الْفُقَرَاءُ مِنَ الأَرْضِ. لِذلِكَ أَنَا أُوصِيكَ قَائِلًا: افْتَحْ يَدَكَ لأَخِيكَ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ فِي أَرْضِكَ» (تثنية١٥:١١).

كيف أقدم طيبًا؟

يمكن ذلك من خلال المشاعر الجميلة من جهة الرب والشعور بالامتنان لـه، والشـهادة لـه بالكلمـات الرقيقـة والتـي تكـون أحيانًـا مثـل قطـرات العطـر (الكلمات طيبة من الطيب أيضًـا..)، هكذا يقول القديس بطرس: «بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ» (١بطرس ٣:٤). ويمكن كذلك إكرام الرب بطريقة مريم، عن طريق العطايا، ولا أنسى تلك الفتاة التي جمعت صديقاتها وأصدقائها واحتفلوا بالعذراء في عيد الأم أمام أيقونتها حيث أحضروا لها ورودًا وشموعًا وعطرًا وصنعوا لها تمجيدًا، وآخرون يحملون إلى كنائسها الأيقونات والهدايا.. هذا يقابله الرب بالامتنان.

«ذِكْرُ الصِّدِّيقِ لِلْبَرَكَةِ، وَاسْمُ الأَشْرَارِ يَنْخَرُ» (أمثال ١٠:٧)

قَارُورة الطيب "٢"

«فامتَلأَ البَيتُ مِنْ رائحَةِ الطّيبِ» (يوحنا ١٢:٣)

كل دمعة يسكبها الإنسان أمام الله، هي أغلى من طيب الناردين، يجمعها الله ويحفظها عنده: «اجعَلْ أنتَ دُموعي في زِقِّكَ. أما هي في سِفرِكَ؟» (مزمور ٥٦:٨)، دموع التوبة الصادقة الممزوجة بالملامة والرجاء، ودموع التعزية عندما نتأمل في غفران الله وعطاياه وطول أناته، ودموع الحب عندما تضطرم الشفقة في قلوبنا باتجاه الآخرين وتحرّك محبتنا تلك الأحشاء، ودموع الفرح عندما لا تكفي الابتسامة والضحكة كتعبير عن الفرح القلبي، والعرق الذي نبذله في خدمة الآخرين (وجمعه أعراق أي أتعاب) هو طيب غالٍ كثير الثمن عند الله، لأنه عصارة الحب خاصة عندما يكون برضىً. والهدايا التي نقدّمها لله في هيكله مثل البخور والشمع والأباركة والعطايا المالية وغيرها، هي قارورة طيب أيضًا.

وعندما نقول له إنه ليس لدينا ما نشتري به الطيب أو نقدم به الهدايا، لدينا المشاعر والكلمات الطيبة؛ فقد تقدم فتاة لأمها هدية في عيدها شعرها الذي تقصّه اكرامًا لها، أفما يُحسَب هذا طيبًا ثمينًا؟ وعندما يقدّم شخص جزءًا من جسده لينقذ حياة آخر، أفما يفوق عمله ما قدمته تلك المرأة؟ والذين قدموا دماءهم الزكية في الاستشهاد، أَمَا تُحسَب هذه الدماء أغلى من الناردين (لقد قيل في التقليد الكنسي إن أجساد الشهداء كانت تفوح منها رائحة عطرة أثمن من أي طيب)؟!

هكذا الذين يقدمون كلمات المديح والتشجيع والملاطفة، والذين يخفّفون عن المتألمين، أليس هذا شكلا من أشكال الطيب؟ حتى ليُقال إنه "طيّب" خاطره!! ألم يضمّد السامري جراح المُصاب بالخمر والزيت، وكان في الواقع يقدم أفخر الأطياب، بل والذي يقدم مجرد جرعة ماء لعطشان أَمَا تُحسَب تلك القطرات من الماء أثمن من الطيب؟..

إن الطيب في أروع معانيه وأهدافه هو أن تهب الشعور بالراحة والرضى للآخر...

هذه هي قارورة الطيب...

هذا فعلته ساكبة الطيب، ويفعله كل شخص يقدم لحظات من الرضى والراحة للآخرين...

الفِصْح

تشير جميع الذبائح إلى السيد المسيح، ولعلنا نتذكر هذه الذبائح كل مرة نقدم فيها خمس أيادي بخور، فقد صار رفع البخور بديلًا للذبائح السابقة. ولعل تعبير "يرفع بخور" يقابل تعبير "يرفع ذبيحة"، «لِيَكُنْ رَفعُ يَدَيَّ كذَبيحَةٍ مَسائيَّةٍ» (مزمور ١٤١:٢). وترتبط هذه الأيام والتي فيها نحتفل بآلام المسيح وصلبه وقيامته بالفصح ارتباطًا وثيقًا، فالفصح هو العبور "بسخة"، والكلمة اليونانية Pascha مشتقة من "فسحا" الآرامية، و"فيساح" العبرية، وفصح في العربية.

والفصح هو العبور من الموت إلى الحياة، ولذلك فإن عيد القيامة يُسمى فصحًا، وكما عبر بنو إسرائيل من الموت وتحرروا من العبودية، هكذا نحن من خلال المسيح فصحنا الجديد "الحمل الحقيقي" نجونا من الهلاك وعبرنا إلى الراحة الحقيقية، فإليه كانت تشير جميع الحملان والذبائح والمحرقات.

والفصح هو أعظم أعياد اليهود، والحدث المحوري في تاريخهم المقدس، فإن رش الدم من خلال الخروف وعبور الشعب البحر الأحمر وبداية تكوين شعب الله المقدس، هو المحور وهي القصة التي رويت في أكثر من موضع في الكتاب المقدس حتى المزامير، بل أنه كان من بين بنود الطقس أن يسأل الابن أباه عن الأمر فيروي له تلك القصة بفخر وتأثر وفرح..

ونحن عندما نعيّد للفصح لا نعيّد مع اليهود ولا نعيّد قبلهم، ولكن بعدهم، لأن المسيح أسّس عهدًا جديدًا بدمه «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد»

(متى٢٦:٢٨). وقديمًا قام نقاش بين الكنائس حول التعييد في ١٤ نيسان بغض النظر عن اسم اليوم في الأسبوع، حيث تبنى ذلك جماعة سُميت الأربعتعشريون، أم نلتزم بالجمعة التالية والأحد التالي لفصح اليهود، حتى تثبّت الأمر في مجمع نيقية.

وفي أسبوع الفصح الأخير كان المسيح يمشي وحوله ٢٥٦ ألف حمل، لم يكن يدري حاملوها أنها تشير جميعها إليه، وأن بعد ذبحه لن تكون هناك حاجة لأن يُذبَح حمل آخر.. لقد ترك اليهود المسيح مُعلّقًا على الصليب كحمل حقيقي، وأسرعوا ليذبحوا خروف الفصح!! ولكنه كان خروفًا مزيفًا.

القصة: كان رب البيت يختار حملًا بلا عيب، ويجعله تحت الحفظ اربعة أيام (أربعة أجيال وُلِدت في مصر، ومنذ دخول المسيح أورشليم في اليوم العاشر وحتى صلبه في الرابع عشر).

حولي: في شبابه وقوته لكي يكون لحياته قيمة، بعكس العجوز الذي يقترب من الموت وقد لا تكون لحياته قيمة كبيرة. وهكذا السيد المسيح صُلِب في عزّ شبابه، وسني العطاء. وكان الشرط ألّا يقل عن ثمانية أيام ولا يزيد عن سنة، وحولي بمعنى مرّ عليه سنة (حول تعني سنة).

صحيح: بلا عيب والمسيح بلا عيب «بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ» (١بطرس ١:١٩)، فهو من جهة شخصه بار وبلا خطية، وقال «مَنْ مِنكُمْ يُبَكِّتُني علَى خَطيَّةٍ؟» (يوحنا ٨:٤٦)، «لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ» (عب ٤:١٥)، ومن جهتنا حمل خطايانا «الَّذِي حَمَلَ هُوَ نَفْسُهُ خَطَايَانَا فِي جَسَدِهِ عَلَى الْخَشَبَةِ، لِكَيْ نَمُوتَ عَنِ الْخَطَايَا فَنَحْيَا لِلْبِرِّ. الَّذِي

بِجَلْدَتِهِ شُفِيتُمْ» (١بطرس ٢:٢٤)، وحاول بيلاطس فلم يجد فيه عيبًا وقال: «لست أجد فيه علّة» (يوحنا ١٩:٤،٦)، وكانت علّة موته أنه بلا عيب، ومن ثَمّ في تقديم الحمل يختار الكاهن أفضل القربانات.

كل جماعة إسرائيل: لأن المسيح مات عن الكل، وفي آلام المسيح وصلبه اجتمع اليهود وكانوا يصرخون: "اصلبه"، ودون أن يدروا كانوا يقدمون الفصح الجديد المسيح.

يذبحونه: أي لا يُقتَل بطريقة أخرى بل بسفك الدم، لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة. والدم علامة العهد بين الله والشعب، وقد خلّصنا المسيح بدم صليبه، «الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا» (كولوسي ١:١٤)، «وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلًا الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ: مَا عَلَى الأَرْضِ، أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ» (كولوسي ١:٢٠)، «بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَل بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ» (١بطرس ١:١٩)، «لِذلِكَ يَسُوعُ أَيْضًا، لِكَيْ يُقَدِّسَ الشَّعْبَ بِدَمِ نَفْسِهِ، تَأَلَّمَ خَارِجَ الْبَابِ» (عبرانيين ١٣:١٢). وقد اشترط سفك الدم بدون قطع الرأس، حتى لا ينفصل جسد المسيح عن رأسه، **لا تُكسَر عظامه:** الكنيسة جسد المسيح، لابد وأن تكون غير منقسمة.

"**يذبحه" (بالمفرد) كل جماعة إسرائيل:** يُلاحَظ أيضًا أنه لم يقل يذبحونها أي الخراف، خراف الفصح، بل خروف الفصح.. يذبحه كل الجمهور، أي ذبيحة واحدة لجميع الشعب، هكذا الافخارستيا «فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ» (١كورنثوس ١٠:١٧). وبالتالي لا يبيت منه شيء، وهكذا في الإفخارستيا لا يبيت منها شيء لليوم التالي.

يأكلونه على عجلة: بمعنى أنهم يتأهّبون للخروج من مصر، أحذيتهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، وهم واقفون.. وهذا حدث مع السيد المسيح حين تعجلوا تقديمه قبل العيد لئلا يكون شغب في الشعب، وبعد أن كانت نيتهم تقديمه بعد العيد سهّل يهوذا عليهم مهمتهم وتعهّد بتسليمه في هدوء وسرعة.

على أعشاب مرة: فقد ذاق المسيح الموت بعد آلام مرّة حيث تُعَد آلام الصليب أصعب آلام يمكن أن يكابدها شخص محكوم عليه بالموت، حتى أنه يصعب وصفها «إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَتَأَلَّمُ كَثِيرًا...» (لوقا ٩:٢٢). وتشير عبارة **ويشوون الخروف** إلى كم كانت عنيفة تلك الآلام.

يُلاحظ أيضًا أن يُذبَح الخروف في داخل البيت (والبيت هو رمز للكنيسة): ولما أصبح الفصح عامًا، صار يُقدَّم في الهيكل الذي هو رمز للكنيسة فيما بعد.

ويأكله المختونون: أي أنه ليس كل أحد يمكنه التناول، بل هناك شروط، منها أن يكون طاهرًا، مستعدًا، مُعمَّدًا.

.....

وخلال الأجيال تحوَّل الفصح، من احتفال عائلي داخل البيت يرأسه رب الأسرة، إلى احتفال في «الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ لِيُحِلَّ اسْمَهُ فِيهِ» (تثنية ١٦:٦ و٧)، حيث يُسكَب الدم على المذبح، ويكون الكهنة واللاويون هم الخدَّام الرئيسيون في الاحتفال. كما كان الفصح في البداية يومًا واحدًا (خروج ١٢:١-١٤) وهو اليوم الذي خرجوا فيه من مصر، ولكنه صار فيما بعد أيامًا سبعة تمتد إلى اليوم الحادي والعشرين (خروج ١٢:١٥ و١٨؛ ١٣:٦ و٧).

+ ثم اقترن بالفصح طقس آخر هو الفطير (خر ١٥:٢٣، لاويين٦:٢٣، تثنية ١٦:١٦)، الذي أُحتُفِل به أيضًا في نفس الفترة، من اليوم الخامس عشر حتى الحادي والعشرين، مصاحبًا باكورة الحصاد (لاويين ١٠:٢٣-١٤). وفي البداية كان العيدان متميِّزَيْن منفصليْن ثم اقترنا فيما بعد لتداخلهما زمنيًا (٢أخبار الأيام١:٣٠ و١٣؛ متى ١٧:٢٦؛ مرقس ١:١٤؛ لوقا ٧:٢٢؛ أعمال٣:١٢؛ ٦:٢٠).

ولما حدث السبي في القرون الأخيرة قبل الميلاد، أُعتُبِر التحرُّر من السبي خروجًا أو فصحًا جديدًا، وهذا حدث بالنسبة للسبي الأشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، وأشار إلى ذلك إرميا (إرميا ٧:٢٣ و٨) عند عودة المسبيين من بابل (في نهاية القرن السادس قبل الميلاد)، وتنبأ إشعياء عن نهاية السبي (أوائل القرن السادس قبل الميلاد) أنه الخروج النهائي (إشعياء٣:٤٠ و٥؛١٧:٤١-٢٠؛١٦:٤٣-٢١؛ ٩:٤٩-١١،١٢:٥٥ و١٣). وبعد السبي أصبح الفصح هو العيد اليهودي الأساسي، وصار واحدًا من تجمُّعات الحجيج العظى في السنة الليتورچية اليهودية.

إذًا فهذا الفصح سُمي طقس الفصح المصري.. بينما بعد ذلك سُمي طقس الفصح الدائم، وقد صنعه اليهود في السنة التالية في البرية (عدد:١٩-٥)، فالفصح الدائم يمتد لسبعة أيام بعد الفصح ويُسمى الفطير، ورغم أن الطقسين مختلفان إلّا أنه سُمي اصطلاحًا الفصح، أو الفصح والفطير. لأن بني إسرائيل أكلوا الفطير (خبز غير مختمر) لسبعة أيام في الطريق.. والذي لم يستطع عمل الفصح لأي سبب يصنعه بعد شهر..

توقف الفصح حتى دخول أرض الموعد (يشوع ٥:١٠)، ونقرأ عنه بعد ذلك في الاحتفالات الشعبية أيام سليمان، ثم حزقيا مرة أخرى، ثم عزرا (عزرا٦:١٩). وقد أُعتُبِر شهر نيسان رأس شهور التقويم المقدس رغم أنه السابع في الشهور المدنية.

الفصح في أيام السيد المسيح:

كان يتوجّب الحضور على كل من هم في إطار ١٥ ميلًا وليس أبعد، وقد سُمِح لاحقًا للنساء بالصعود إلى الهيكل. ويأتي الحُجّاج من جميع أنحاء العالم ومعهم ذبائح السلامة والمحرقات، وفي أيام نيرون أحصى الحاكم عدد الذبائح التي تُقدَّم بـ٢٥٦ ألف، وذلك ليؤكد لنيرون على أهمية أورشليم والهيكل. وفي تاريخ يوسيفوس أن عددهم وصل إلى ٢,٧٠٠,٢٠٠. وفي سنة ٦٥م وصل العدد إلى ثلاثة ملايين سائح..

تكثر العطايا والهدايا والخيام والضيافة، وورد في التلمود أن بيت فاجي وبيت عنيا اُشتُهِرتا بكرم الضيافة، وفي المقابل كان الحجاج يتركون الجلود وأدوات الاحتفال كهدية لمضيفيهم..

الإعداد للفصح: يبدأ ذلك بشهر قبل ١٤ نيسان، مع المسئولين، والشوارع. وخلال هذا الشهر يتم طقس حرق البقرة الحمراء، وجميع النساء المشكوك في طهارتهن، وثقب آذان العبيد، وتبييض القبور لئلا يتنجس بها أحد. وقبل أسبوعين يفرز الناس عشورهم من الغنم والطيور، كما يُفرَغ ما بداخل الهيكل من نقود وأشياء ثمينة.. ويربط الناس الخروف في مكان ظاهر لتكون الذكرى ظاهرة، ثم يخرج الناس خارج المحلة لتطهير أنفسهم قبل الفصح..

في اليوم السابق (حيث يبدأ اليوم من الغروب إلى الغروب)، حيث يأخذ رب البيت شمعة أو سراج ليفتش عن الخمير أينما وُجِد ليبعده أو يحرقه أو يلقيه في الماء، وقد سُمِح لاحقًا بأن يفعل رب البيت ذلك في يوم الفصح نفسه ظهرًا.. ويصلي قائلًا: "مبارك أنت يا يهوه ربنا ملك الكون الذي أرشدنا بأوامره لعزل الخمير"، ويكمل: "كل الخمير الذي في ملكي، الذي أراه والذي لا أراه، اِجعله كلا شيء، كعُصافة الأرض". والخمير يشير إلى الشر، والفطير إلى الحياة الجديدة.

إلى عملية العزل هذه يشير القديس بولس: «إِذًا نَقُّوا مِنْكُمُ الْخَمِيرَةَ الْعَتِيقَةَ، لِكَيْ تَكُونُوا عَجِينًا جَدِيدًا كَمَا أَنْتُمْ فَطِيرٌ. لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا، إِذًا لِنُعَيِّدْ، لَيْسَ بِخَمِيرَةٍ عَتِيقَةٍ، وَلاَ بِخَمِيرَةِ الشَّرِّ وَالْخُبْثِ، بَلْ بِفَطِيرِ الإِخْلاَصِ وَالْحَقِّ» (١كورنثوس ٥:٧-٩)، وفي المقابل فإن الفطير يُصنَع من (قمح، شعير، شوفان، حنطة)، إذا زُوِّد شيء منه بالماء صار مختمرًا.. الرأي المتشدّد أفاد بأن آخر ساعة لأكل الخبز هي (١٠ أو١١ صباحًا)..

منذ باكر ١٤ نيسان يبدأ الاحتفال (في الجليل لا يُسمَح بالعمل في ذلك اليوم)، أمّا في اليهودية ممكن نصف يوم.. والقاعدة هي عدم البدء بعمل في هذا اليوم، ولكن يمكن إنهاء عمل قبل ذلك اليوم، مع ذلك هناك فئات تُستثنى في موضوع العمل (مثل الحلاقة، الغسيل، بيع الأقمشة).

وكان اليهود يضعون على المائدة في رواق الهيكل خبزتين كتقدمة، وطالما الخبزتان موضوعتان يمكن أكل الخمير، وعند رفع إحداهما يمتنعون عن أكل الخمير، وعند رفع الثانية يقومون بحرق الباقي..

اختيار الحمل: عمره ليس أقل من ثمانية أيام وليس أكثر من سنة، وكان حملًا لعدد من ١٠-١٢ فردًا ذكرًا وليس أنثى (لأن حواء من آدم أُخِذت). **وبلا عيب** إشارة إلى المسيح الكامل كمالًا مطلقًا (ومن اللطيف ملاحظة ذلك عند صنع القربان حيث نجتهد في جعل قربان الحمل سليمًا بلا عيب). **وفي الهيكل:** كان يجب على كل ذكر أن يحضر ليقدم ذبيحة محرقة من أمواله (وليس من العشور والنذور)، وإذا لم يستطع في نفس اليوم ففي أي يوم من السبعة.

الشاجيجاه: هي ذبيحة سلامة على مرتين، الأولى في ١٤ نيسان يوم الفصح (أُعتُبِرت فيما بعد جزءًا من عشاء الفصح)، والثانية ١٥ نيسان أول أيام الفطير، وفي حالة ذبيحة السلامة يمكن أن يبقى اللحم يومين بليلة (بعكس الفصح الذي يؤكل في نفس اليوم).

ذبح الحملان في الهيكل: كانت تقدمة المساء تُذبَح ٢:٣٠ ظهرًا وتُقدَّم ٣:٣٠ ظهرًا، فإذا كان اليوم جمعة فإنها تُقدَّم ساعتين على موعدها لتفادي كسر السبت.

في يوم الجمعة العظيمة قُدِّمت الذبيحة ٢:٣٠ (ذُبِحت ١:٣٠)، وكان ثلاثون رجلًا يدخلون بذبائحهم، ويصطف الكهنة واللاويون بأوانيهم لتلقّي الدم، وأثناء تقديم الذبائح يرتل اللاويون الهلليل (هناك الهلليل المصري أو المعتاد، والهلليل الكبير وهو يشبه ترنيمة السماء في الرؤيا ١٩:١،٣،٤،٦).. "هلليلويا الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب الهنا. هلليلويا سبحوا لإلهنا يا جميع عبيده الخائفيه الصغار والكبار. هلليلويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على

كل شيء". وكانــوا يبدأون الهلليــل "سبحـوا الرب يا عبيد الرب وليس فرعون بعد الآن".

أُضيف إلى الفصح فيما بعد أربع كؤوس خمر يُديرها رب العائلة بالتتابع ممزوجة بالماء، وترنيم المزمورين ١١٣ (سبحوا يا عبيد الرب) و١١٨ (احمدوا الـرب لأنـه صـالح)، وتقـديم وعـاء مـن الثمـار ممزوجـة بالخـل لتـذكُّر آلام العبوديـة. فـالخمر التـي كانـت هنـاك علـى مائـدة العشـاء الربـاني كانـت مـن عناصر الفصح، كما يذكر الكتاب أن التلاميذ سبَّحوا عقب العشاء الرباني قبل أن يخرجوا إلى جبل الزيتون (متى ٢٦:٣٠، مرقس ١٤:٢٦).

احتفال المسيح بالفصح مع تلاميذه:

وأخيـرًا، وقبـل أن يصـعد المسـيح علـى الصـليب، وفـي ذات ليلـة الفصـح القـديم الـذي اشـتهى أن يأكلـه مـع تلاميـذه قبـل آلامـه (لوقـا ٢٢:١٤)، يطـوي الـرب صـفحة الفصـح كرمـز، ويُقدِّم للعـالم الحقيقـة: حيـث يحـلُّ المسـيح محـل خـروف الفصـح، ويؤسِّـس وليمـة الفصـح الجديـد، وهـو فيهـا خـروف الفصـح الجديد المذبوح بالنيّة وبالطاعة: «لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا» (١كورنثوس ٥:٧)، ويتمّم خروجه الجديد أي عبوره من هذا العالم إلى ملكوت الآب: «أَمَّا يَسُوعُ -قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ- وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ...» (يوحنا ١٣:١).

كان التلاميذ يستشعرون أحداثًا خطيرة آتية في الطريق، جاء يسوع مع عشرة من تلاميذه منحدرين من جبل الزيتون، والحجاج يتدافعون، الخيام منتشرة، الزهور تتفتح، أورشليم في أبهى صورها.. كان يسوع يسير وسط عشرات آلالاف من الحجاج والذبائح، ينظر بابتسامة فهم لا يدرون أنه هو المقصود.. وهو الحمل الحقيقي، وكل حمل هنا إنما يرمز إليه..

في صباح الخميس (كان يُسمى الخميس الأخضر) حيث يلبس الأب رئيس الكهنة حلة خضراء يوم خميس العهد، تخيل التلاميذ أنه سيأكل الفصح في بيت عنيا، ولكنه قرر أن يأكله ويقدم نفسه مرة واحدة وإلى الأبد.. أكل معهم وجبة فصحية مُقدِّمًا نفسه بالنيّة قبل أن يقدموه، وفي العلية حيث سيجتمع التلاميذ خائفين بعد قليل، وحيث سيحل الروح القدس في يوم البنطيقستي..

في هذا العشاء أسس الافخارستيا، وقال إن واحدًا منكم سيسلمني، والليلة كلكم تشكّون في، وحذّر بطرس.. ولكن المسيح لم يأكل الفصح مع التلاميذ، ولكن عشاء فصحي حيث تسبق الفصح وليمة الحبوراه (الأغابي) وإلّا فكيف يأكله قبل موعده طقسيًا؟ وعندما يقول القديس مرقس: « وفي اليومِ الأوَّلِ مِنَ الفَطيرِ...» (مَرقُسَ ١٤:١٢)، فهذا يعني اليوم السابق (شورب).

هكذا أشارت الذبائح كلها إلى السيد المسيح الذي قدم ذبيحة نفسه مرة واحدة، ولم ينتبه اليهود، بل أنهم عندما توقعوا مجيئة ليخلصهم وقت حصار أورشليم، نسوا أنهم ذبحوه بأنفسهم منذ ٤٠ سنة، وأن هو الذي قال لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض.

خشبة الصليب

ليس المقصود هنا هو البحث عن الصليب والعثور عليه مع خشبتين أخريين وتمييزه عنهما، وهو ما نحتفل به يوم ١٠ برمهات من كل عام، حيث نتذكر كيف عثرت الملكة هيلانة على خشبة الصليب، ثم رحلة الصليب وتوزيع أجزائه في جميع أنحاء العالم وتزيين التيجان به، أو سرقته في بلاد الفرس وإعادته، أو الحديث عن نوع الخشب الذي صنعت منه الخشبة إن كان من السنط أو غيره، أو شكل الصليب إن كان حرف T أو متقاطع، أو طريقة الصلب وغيرها... وإنما الحديث عن خشبة الصليب باعتبارها الصليب ذاته، وباعتبارها الدم والفداء، وبالتالي الرد على الذين يتهموننا بأننا نعبد الخشبة.

أولًا كلمة الصليب باليونانية هي استاقروس **cταυρος**، ولكن في القبطية "شي ϣⲉ" أو "شي أن اونخ ϣⲉ ⲛ̀ⲱⲛϧ – علامة الحياة". والكلمة "شي ϣⲉ" تعني صليب، وتعني خشبة، وتعني شجرة. ويقول مار أفرام السرياني: "المجد لذلك النجار الذي صنع من الصليب قنطرة نعبر بها من الموت إلى الحياة". كما توجد أيقونات كثيرة يظهر فيها الصليب كشجرة تنمو منها فروع من الريحان والورود، بل أن التقليد يقول أنه كلما كانت تؤخذ قطعة من خشبة الصليب لتُهدى لملك أو أسقف، كان ينمو مكانها بشكل تلقائي. أمّا من جهة أنه شجرة فهو يشير إلى شجرة الحياة التي حيينا بها، وأمّا من جهة أنه خشبة فهو رمز الثمر والحياة. والحقيقة أن الخشب هو كائن حي وليس مجرد مادة صماء، ولذلك أفضل أن يكون حامل الأيقونات وكراسي الكنيسة وتجليد حوائطها من الخشب، بسبب الدفء والحياة التي فيه. فالصليب إذًا ليس

بجماد وإنما كائن حي ينزف، ومن هنا تناجي الكنيسة الصليب قائلة: "السلام لك أيها الصليب ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲁⲕ ⲱ ⲡⲓⲥⲧⲁⲩⲣⲟⲥ"، مثلما تقول إنه حي لأنه حمل الحياة، لأنه بالصليب صارت لنا الحياة.

علامة الحياة أونخ (عنخ):

ظهرت الأونخ في الجداريات الفرعونية القديمة، لتشير إلى الحياة وإلى إعادة البعث وانتقلت إلى ثقافات كثيرة. وعلى الرغم من أن البعض يرى أنه لا علاقة لعلامة الأونخ بالصليب، إلا أن الصليب ارتبط بالحياة، ففي آدم الثاني الذي صُلِب على الصليب نلنا الحياة ومات الموت، ومن ثَمّ اعتبرها البعض أحد أشكال الصليب المسيحي.

كذلك نتحدث عن الخشبة باعتبارها الصليب والفداء، وليس مجرد أداة موت، ليس لأنها فقط قد تخضبت بالدم كما قال البعض، ولكن لأن المصطلح أصبح يعني ضمنًا الصليب والفداء، هكذا ورد في الكتاب المقدس «وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ» (غلاطية ٦:١٤)، «وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلًا الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ: مَا عَلَى الأَرْضِ، أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ» (كولوسي ١:٢٠)، وينسب القديس بولس هنا الدم الإلهي إلى الصليب مثلما ننسبه إلى المسيح، ودم المسيح نُسِب للصليب، والصليب نُسِب للمسيح، فصار الدم الذي جرى من جنب المسيح ومن جسده يُنسَب للصليب مثلما يُنسَب للمسيح. ونقول في ذكصولوجية عيد الصليب:

"فلنسبح أيها المؤمنون ربنا يسوع المسيح، ونسجد لصليبه، الخشبة المقدسة غير المائتة... السلام لك أيها الصليب سلاح الغلبة. السلام لك أيها الصليب عرش الملك... مُكرَّمة جدًا علامة الصليب الذي ليسوع المسيح الملك، إلهنا الحقيقي".

لذلك كل ما هو على شكل صليب نحترمه ونجلّه، فهو ليس مجرد قطعة من الخشب، وبالتالي لا ندوسه ولا نهمله، إنه المسيحية كلها، وهذا يفسر لنا كيف أن الصليب رغم أنه كان وما يزال من بين أدوات التعذيب والقتل، إلّا أنه فخر للمسيحيين لأن المسيح اختاره ليقدم به الفداء، لأنه كان أداة لعنة فحولها إلى بركة، وقَبِل الآلام العنيفة حبًا فينا لندرك مقدار ما أخطأنا به. وفيما كان مُعلَّقًا كان يصالح السمائيين مع الأرضيين، مُقدِّما ذبيحة نفسه، ومُقدِّمًا مشيئة الآب على مشيئته، فكان الصليب إلغاء الـ"أنا".. ومع ذلك لم يُكسَر منه عظم ولا انفصل الرأس عن الجسد، لتبقى الكنيسة واحدة. وإذا قال البعض إن الصلب كانت عقوبة الموت الرومانية آنذاك، نجيب بأن المسيح تعرّض للقتل مرارًا قبل الصليب، ولكنه لم يُرِد لأنه اختار التوقيت «ساعته لم تكن قد جاءت بعد» (يوحنا ٧:٣٠؛ ٨:٢٠)، واختار المكان «لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم» (لوقا ١٣:٣٣)، واختار الطريقة «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ» (يوحنا ٣:١٤). هكذا قال الرب: «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها» (يوحنا ١٠:١٨).

ومثلما لم نعد ننظر إلى لخشبة التي صُلِب عليها المسيح باعتبارها مجرد خشبة، هكذا الخبز والخمر لم يعودا مجرد خبز وخمر. ومثلما نقول: نسجد لخشبة الصليب، نقول: نسجد لجسدك المقدس.

وكما يرد في المزمور: «الرب قد ملك على خشبة» (مزمور ٩٦، قبطي)، فهو لا يقصد بالطبع أنه ملك على مجرد قطعة من الخشب، كما أن العصا التي تحولت إلى حيّة، واستخدمها موسى فابتلعت حيّات المصريين، تحدث عنها باعتبارها عصا «ولكن عَصا هارونَ ابتَلَعَتْ عِصيَّهُمْ» (خُروجُ ٧:١٢).

وفي قسمة عيد الصليب نقول: "داود النبى رتل في المزمور قائلًا: مَلَكَ الرب على خشبة التي هي مثال الصليب. نسجد لصليبك يا سيدنا ونفتخر به. كما تكلم بولس الرسول قائلًا: حاشا لنا أن نفتخر إلا بصليب ربنا الذي صُلِب عليه يسوع المسيح مخلصنا، ومن قِبَله صرنا أحرارًا". وفي الإبصالية الواطس لعيد الصليب نقول: "خلاص العالم هو صليب المسيح، أذكرني من أجل العذراء في ملكوتك يا ابن الله".

ومن هنا فإن الكنيسة تتعامل مع كل ما تلامس مع السيد المسيح معاملة خاصة: فالقبر المقدس ما يزال يخرج منه النور بعد عشرين قرنًا من الزمان، ولم نعتبره مجرد مكان دُفِن فيه المسيح. والحنوط التي دُهِن بها جسده صُنِع منها لاحقًا الميرون المقدس. والمسامير التي سُمِّر بها جسده على الصليب صارت تزيّن تيجان الملوك. والكفن تمجّد بنوره وصار شاهدًا لقيامته، ويوجد الآن في تورينو. وهكذا إكليل الشوك والحربة التي طعنته وغيرها. ونقول في الإبصالية الآدام لعيد الصليب: "السلام للصليب، السلام لمدينة صهيون، السلام للأردن، وموضع المغارة".

وكذلك ثياب الشهداء وأدواتهم، وكذلك القديسون ومغاراتهم وأجسادهم وكل ما تلامس معهم، ولا ننسى أن الأجساد ستُكرَّم في الحياة الأبدية متخذة طبيعة جديدة.

هكذا استخدم الآباء تعبير صليب كثيرًا بدلًا من المسيح والدم والفداء، فيقول القديس بطرس: «الَّذِي حَمَلَ هُوَ نَفْسُهُ خَطَايَانَا فِي جَسَدِهِ عَلَى الْخَشَبَةِ، لِكَيْ نَمُوتَ عَنِ الْخَطَايَا فَنَحْيَا لِلْبِرِّ. الَّذِي بِجَلْدَتِهِ شُفِيتُمْ» (١بطرس ٢:٢٤)، بينما يقول القديس بولس: «لأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يُرْسِلْنِي لأُعَمِّدَ بَلْ لأُبَشِّرَ، لاَ بِحِكْمَةِ كَلاَمٍ لِئَلاَّ يَتَعَطَّلَ صَلِيبُ الْمَسِيحِ» (١كورنثوس ١:١٧)، «فَإِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ، وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللهِ» (١كورنثوس ١:١٨) فيتكلم عن أن "كلمة الصليب" هي قوة الله. وعن أعداء المسيح والكلمة قال القديس بولس: «لأَنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا، وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ» (فيلبي٣:١٨) مشيرًا إلى أنهم أعداء الصليب!.

ومن جهة أخرى فإن المسيح مات مرة على الصليب إلّا أن ذبيحة الصليب ممتدة حتى الآن، وإلى مجيئه الثاني، فهو مات مرة واحدة ولكن الدم ما يزال ينزف من الصليب في الكأس كل يوم.

مثال آخر هو الحية النحاسية، فالبرغم من أنها صنعت من نحاس أي جماد، إلا أنها كانت تشفي ولم يكن هناك كائن مصلوب عليها ولم تكن فيها حياة، فإن كان الرمز يشفي فكم بالأحرى الصليب الذي اتحد بالمسيح في الصلب، «فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: اصْنَعْ لَكَ حَيَّةً مُحْرِقَةً وَضَعْهَا عَلَى رَايَةٍ، فَكُلُّ

مَنْ لُدِغَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا يَحْيَا، فَصَنَعَ مُوسَى حَيَّةً مِنْ نُحَاسٍ وَوَضَعَهَا عَلَى الرَّايَةِ، فَكَانَ مَتَى لَدَغَتْ حَيَّةٌ إِنْسَانًا وَنَظَرَ إِلَى حَيَّةِ النُّحَاسِ يَحْيَا» (عدد ٢١:٨،٩).

"نمجدك بشكر يا إلهنا الحقيقي، لأنك أعطيتنا نعمتك لعلامة صليبك. الصليب هو رجاؤنا. الصليب هو ثباتنا في شدائدنا وضيقاتنا. الصليب هو طهارتنا" (إبصالية واطس لعيد الصليب).

يَوم الكفّارة

(عدد ٢٩:٢٨؛ لاويين ١٦؛ عبرانيين ٩،١٠؛ لاويين ٢٣:٢٦-٣٢)

يوم الكفارة هو أهم يوم في السنة الليتورجية اليهودية كلها، كل شيء فيه مختلف: الطقس، ملابس الكهنة، المشاعر، المجد، فكرة الغفران...

وأمّا أسماؤه فهي: ١- يوم الكفارة: يكفّر فيه عن خطايا العام، حيث ينضح الدم على الغطاء (Cover) في قدس الأقداس باعتباره أقدس يوم (عبرانيين ٧:٢٧؛ أعمال ٢٧:٩). ٢- اليوم، ٣- الصوم، ٤- سبت السبوت، ٥- سبت الراحة، ٦- عيد الأعياد.

أما عن موعده: فهو يأتي في اليوم العاشر من الشهر السابع، ويرتبط بعيد المظال الذي يأتي في الخامس عشر، حيث يصطلح إسرائيل مع الله قبل الاحتفال بعيد الحصاد والشكر، ويعني "الحصاد" اجتماع كل الأمم، في حين تشير المظال أيضًا إلى امتداد مظلة الله لتشمل جميع الأمم.

وفي التقليد اليهودي:

فإن يوم الكفارة هو اليوم الذي أخطأ فيه آدم، واليوم الذي تاب فيه أيضًا، ويوم ختان إبراهيم، ويوم نزول موسى من الجبل وصنعه كفارة لأجل خطية العجل الذهبي التي سقط فيها الشعب. كما كانت سنة اليوبيل تُعلَن في يوم الكفارة (لاويين ٢٥:٩).

الاستعدادات لهذا اليوم:

يقوم رئيس الكهنة بخدمات هذا اليوم، يعاونه أكثر من خمسمائة كاهن، ويعتزل بيته ليقيم في حجرته بالهيكل، يخدم بشكل عادي خلال الأسبوع، وفي اليومين الثالث والسابع يرشّونه برماد (البقرة الحمراء) لعله يكون قد تنجس بشيء، وفي ليلة الكفارة يسهر طوال الليل يقرأ، ويحرص ألاّ ينعس، وكان يتناول عشاءً خفيفًا.

ويقوم رجال من السنهدريم بمراجعة الطقوس معه لئلا يخطئ في شيء، والأكثر من ذلك يستحلفونه ألّا يغيّر شيئًا منها، لا سيّما في الداخل بمفرده، وإلّا جاء غضب الله على الجماعة كلها. وليلة العيد يحضرون أمامه الذبائح لعمل "بروڤة"! ومن بين الأسباب التي جعلتهم يلجأون الى ذلك هو ما حدث في عصر المكابيين حين جمع رئيس الكهنة بين السلطتين المدينة والدينية، فجاء ذلك على حساب الطقوس وسلامتها، وبسبب ذلك تأزّمت العلاقة بين الفريسيين والصدوقيين.

كما يصوم الشعب من أجل هيبة هذا اليوم، إنه يوم المصالحة مع الله، ومع ذلك فلا كفارة كاملة ولا غفران في الناموس (ذبائحه) «لأَنَّ النَّامُوسَ، إِذْ لَهُ ظِلُّ الْخَيْرَاتِ الْعَتِيدَةِ لاَ نَفْسُ صُورَةِ الأَشْيَاءِ، لاَ يَقْدِرُ أَبَدًا بِنَفْسِ الذَّبَائِحِ كُلَّ سَنَةٍ، الَّتِي يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الدَّوَامِ، أَنْ يُكَمِّلَ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ» (عبرانيين ١٠:١)، وهكذا فالتكرار المستمر لدم العجول والتيوس لا يقدر على الغفران، بل حتى يوحنا الذي كان يعد الطريق للمسيح لم يكن ذلك كافيًا، بل جاء مقدمة لرجاء أفضل (عبرانيين ٧:١٩)، وهكذا يظهر هذا الضعف والعجز في طقوس الكفارة رغم أهميتها وهيبتها وبهجتها.

وهكذا يصل الاستعداد في هذا العيد إلى أقصى درجة: المظهر مختلف، حتى ملابس الرئيس تكون من الكتان، والشعب مختلف وكأنه يحمل في نفسه رمز النقاء التام المطلوب ليوم الكفارة، ملابس فارسية بيضاء ما قيمته عشرات الآلاف من الجنيهات الإسترليني في الصباح وفي المساء. بل أنه يخلع الثياب ويستبدلها في ذبيحة الكفارة، حيث يلبس الكتان. وفي نبوة زكريا يتحدث عن خلع يهوشع الثياب القذرة «قَدْ أَذْهَبْتُ عَنْكَ إِثْمَكَ» (زكريا ٣:٣-٤)، وفي نبوتي حزقيال ودانيال (حزقيال٩:٢،١١؛ دانيال ١٠:٥؛ ١٢:٦) نقرأ عن الجالسين بجوار الرب متسربلين بثياب بيض. وقبل لبسها، كان رئيس الكهنة يغتسل كله وليس اليدين والرجلين فقط.

كما أن سلسلة الذبائح مختلفة في مواصفاتها وعددها وأهدافها، فهي ذبائح تكفير عن الكل: «وَيُكَفِّرُ عَنْ مَقْدِسِ الْقُدْسِ. وَعَنْ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَالْمَذْبَحِ يُكَفِّرُ. وَعَنِ الْكَهَنَةِ وَكُلِّ شَعْبِ الْجَمَاعَةِ يُكَفِّرُ» (لاويين ١٦:٣٣).

خدمة ذلك اليوم:

عند منتصف الليل تُجرى قرعة لاختيار الكاهن الذي سيزيل الرماد عن المذبح ويعده للذبيحة الجديدة، وكان الرماد يُلقى في وادي قدرون، وبشكل خاص يوقد أربعة ثيران بدلًا من ثلاثة في الأيام العادية.

ومع أول ضوء يُحجَب رئيس الكهنة عن الشعب بقماش أبيض حتى يغيّر ملابسه، وكذلك عندما يستحم، حيث يستخدم مكانًا غير المعتاد. في ذلك اليوم يغتسل خمس مرات، ويغسل يديه ورجليه عشر مرات. ويلبس الملابس الفخمة التي تليق بمجد الله وبهائه الذي سيخدمه، ومن هنا فقد أخذت كل الكنائس

فكرة بهاء منظر الكاهن في الخدمة. ويلبس رئيس الكهنة ملابس من الكتان عند الكفارة، والكتان يرمز إلى التجسد حيث يشير إلى الجسد المأخوذ من الأرض، إشارة إلى المسيح الذي تخلّى عن مجده ولبس جسد تواضعنا وهو بغير خطية (كتان نقي)، ثم يعود من جديد إلى ملابس المجد، إشارة إلى المسيح الذي عاد إلى مجده، فقام بجسد ممجد وجلس في مجده عن يمين الآب.

في ذلك اليوم الذي يخدم فيه الرئيس وحده، إشارة إلى العمل الكفاري الذي قام به المسيح وحده، لم يشاركه فيه أحد، فيقدم:

١- ذبيحة الصباح مع تقدمتها وسكائبها.

٢- الكفارة نفسها.

٣- ذبائح إضافية.

٤- ذبيحة المساء.

الذبائح الإضافية:

خروف محرقة (عن رئيس الكهنة والكهنة)، ثم ثور صغير (عن الشعب)، ثم **سبعة حملان** حولية مع تقدمتها **ذبيحة محرقة، جدي ماعز** لذبيحة الخطية. ثم الذبيحة الخاصة، وهي **ذبيحة الكفارة المميزة: عجل صغير** كتقدمة خطية عن رئيس الكهنة وبني هرون، وأخرى عن الشعب عبارة عن **تيسين**، يُطلَق التيس الواحد ويُذبَح الآخر ويُرَش دمه مباشرة، وإذا كان يوم الكفارة سبت تُضاف ذبائح السبت إلى ذبائح العيد.

يشترى رئيس الكهنة الذبائح عنه وعن الكهنة من ماله الخاص، وذبائح الشعب (أي الذبائح العامة) من خزانة الهيكل.

ذبيحة الخطية: تُقدَّم بعد ذبيحة الصباح، حيث يخلع الكاهن ملابسه الذهبية ويلبس الكتان، ويغسل يديه ورجليه ليمارس الجزء المتميز من خدمة ذلك اليوم. ويوقف الثور المخصص لذبيحة الخطية بين رواق الهيكل والمذبح متجهًا نحو الجنوب، والرئيس متجهًا نحو الشرق (جهة المصلين) ويوجه رأس الثور ناحية الغرب نحو القدس، ثم يضع يديه على رأسه ويصلي: "آه يا رب يهوه لقد ارتكبتُ شرورًا، لقد تعديتُ، لقد أخطأتُ أنا وبيتي، أتوسل إليك يا يهوه كفّر عن الشرور والتعديات والآثام التي ارتكبتُها أمامك أنا وبيتي، لأنه مكتوب في شريعة موسى عبدك: لأنه في ذلك اليوم سيُكفَّر عنكم، ويجعلكم مُطهَّرين من كل تعدياتكم أمام يهوه سوف تتطهّرون".

الجزء الثاني: تيس المحرقة وتيس عزازيل:

تم الجزء الأول من الخدمة الكفارية عن الكهنة ما بين الرواق والمذبح قريبًا بين القدس، أمّا الجزء الثاني فيتم بالقرب من المصلين حيث يوجد وعاء اسمه "كالبي"، فيه قطعتان من العاج (أو الذهب في أيام الهيكل الثاني) الواحدة ليهوه والثاني لعزازيل (تيس الفرار). والتيسان يجب أن يكون شكلهما واحدًا، ووزنهما وثمنها كذلك، ويتم شراؤهما في نفس الوقت.

يقف التيسان ظهرهما للشعب، بينما يقف رئيس الكهنة في مواجهة شعبه لعمل القرعة، حيث يضع القطعة الواحدة على التيس والأخرى على الآخر، فإذا جاء تيس يهوه عن اليمين هلّل الشعب وتفاءل. يلفّ الكاهن قطعة من

القماش القرمزي حول قرني تيس عزازيل، وقطعة أخرى حول رقبة تيس يهوه. ويقف تيس عزازيل أمام الشعب في انتظار أن توضع عليه كل خطايا الشعب.

هذا يذكّرنا بما حدث مع المسيح حين أوقف بيلاطس يسوع أمام الشعب، كما لو كان سيُقاد من الآن فصاعدًا حاملًا خطايا الشعب، وفيه إشارة إلى أن الخطية ما تزال باقية حتى يأتي المخلص والذي سيرفعها بشكل نهائي (لأن عزازيل سيُطلَق في البرية). وهناك تقليد يقول إن العلامة الحمراء تتحول إلى بيضاء عندما تُقبَل الذبيحة بالنسبة لعزازيل، «هَلُمَّ نَتَحاجَجْ، يقولُ الرَّبُّ. إنْ كانتْ خطاياكُمْ كالقِرمِزِ تبيَضُّ كالثَّلجِ. إنْ كانتْ حَمراءَ كالدّوديِّ تصيرُ كالصّوفِ» (إشَعياءَ ١:١٨). ويضيف التقليد إن هذه المعجزة لم تحدث لمدة أربعين سنة قبل خراب الهيكل.

الجزء الثالث والأهم في الكفارة:

يقف رئيس الكهنة ناحية القدس ويضع يده على تيس يهوه ويقول الاعتراف السابق، ويضيف نسل هرون، ثم يذبحه ويضع دمه في وعاء يحرّكه أحد الكهنة لئلّا يتخثّر، ثم يتقدم إلى مذبح المحرقة ويملأ المجمرة ويحملها في اليمين لأنها ثقيلة أكثر من المعتاد، ثم تُربَط رجلاه بالحبال البيضاء، ويبدأ في الاختفاء وسط سحابة بخور في الداخل.. ولا يظهر هناك في الظلام سوى ضوء أحمر خافت من الجمر، بينما يحجب البخور رؤية الكرسي (التابوت) عن الكاهن لئلّا يموت. ولم يكن في أيام المسيح داخل قدس الأقداس سوى صخرة وربما كُتِبت عليها الوصايا. ويضع الكاهن البخور ويعبّق المكان، ومن ثَمّ يتراجع إلى الخلف، وعند الحجاب يصلي:

"أيها الرب إلهنا وإله آبائنا: نسألك ألّا يأتي أيّ سبي علينا، سواء في هذا اليوم أو خلال هذه السنة، وحتى إذا أُسِرنا في هذا اليوم أو هذه السنة، فيا ليته أن يكون إلى مكان تُطبَّق فيه الشريعة. لا تسمح أيها السيد إلهنا وإله آباءنا أن يأتي العوز علينا في هذا اليوم أو هذه السنة، ولكن إذا أتانا العوز خلال هذا اليوم أو العام، فليكن بسبب كثرة سخائنا وصدقاتنا. اسمح أيها الرب إلهنا وإله آبائنا أن يكون هذا العام عام الرخاء، عام الكمال، عام السلام والتجارة، عام الأمطار الوفيرة وشروق الشمس والندى، العام الذي لا يحتاج فيه شعبك إسرائيل مساعدة من آخر، ولا تسمع لصلوات هؤلاء الذين سيشرعون في إذلالنا، هكذا بالنسبة لشعبك إسرائيل لا يستطيع أي جيش أن يرفع سيفه ضدهم. اسمح أيها الرب إلهنا وإله آبائنا، أن تكون منازل رجال "شارون" هي قبورهم."

رش الدم: يخرج الرئيس فيرتاح الشعب، ويأخذ الدم الذي مع الكاهن ويدخل من جديد لينضح بأصبعه مرة لأعلى عند الغطاء ومرة لأسفل، ويكررها حتى تصبح مرة أعلى وسبعة أسفل وهو يحصي عدد المرات.

ثم يخرج ويضع طبق الدم أمام الحجاب، ثم يقوم بذبح **تيس يهوه** ويدخل قدس الأقداس لثالث مرة وينضح الدم مثل السابق، ثم يخرج ويسكب دم العجل في طبق دم التيس، ثم يسكب الاثنين في طبق دم العجل، ثم ينضح منه على قرني مذبح البخور وسبع مرات على قمته، وبذلك يكون نضح بدم التفكير ثلاثًا وأربعين مرة، ويجب ألّا تتسخ ملابسه بدم الخطية.

وهكذا بينما دخل هو مرتين، مرة عنه ومرة عن الشعب، دخل المسيح مرة بدم نفسه: «وليس بدَمِ تُيوسٍ وعُجولٍ، بل بدَمِ نَفسِهِ، دَخَلَ مَرَّةً واحِدَةً إلَى الأقداسِ، فوَجَدَ فِداءً أبديًّا» (عِبرانيّينَ ٩:١٢).

عزازيل.. مع كل ما حدث، إلّا أن الضمائر خائفة من الذنوب الشخصية بعد تكفير الخطايا العامة للرئيس والكهنة والشعب (وتقابله المعمودية)، هذا مثل الخطية الجدية في الكفارة.. ولكن يتبقى الاعتراف بالخطايا الشخصية.

.....

ما يزال تيس عزازيل واقفًا جهة الشعب في انتظار الحِمل الثقيل الذي سيحمله إلى البرية، يضع الكاهن يديه على رأس عزازيل ويعترف: "آه يا يهوه، لقد فعلوا شرورًا وتعدّوا وأثموا، أي شعبك بيت إسرائيل.. كفِّر إذًا يا رب (يهوه)، أنا أتوسل إليك عن شرورهم وتعدياتهم وخطاياهم التي ارتكبوها بفظاعة وتعدوا.... الخ."

عندئذ يحمل الكهنة تيس عزازيل من باب الشرق عبر رواق سليمان، في اتجاه جبل الزيتون، ويجوزون فوق جسر مقوّس فوق وادٍ، ويسلمونه إلى شخص وثني (رمز المسيح الذي أُسِلم للأمم). وتبلغ المسافة بين أورشليم وبداية البرية ٩٠ ميلًا، تساوي عشر مراحل، كل مرحلة مسافة نصف سفر سبت، في كل محطة يقف شخص معين ليتابع رحلة عزازيل، كما أنها فرصة ليستريح فيها الشخص المرافق لعزازيل، حتى يصل إلى البرية.

هناك يقطع الشخص المرافق نصف اللسان القرمزي ويلصقه في طرف صخري ناتئ، ثم يدفع التيس حرًا، ثم يبدأون في إعلان تمام المهمة عن طريق أعلام تبلغ من ربوة لربوة حتى تصل البشرى إلى المحطة الأولى.

وللمراحل المتعددة فائدتان: الأولى الالتزام بقانون سفر السبت، أي عدم المشي أكثر من المسافة المقررة للشخص الواحد. وثانيا: إبلاغ الخبر للذين في الهيكل عن طريق متابعة مندوبي المراحل.

ويلاحظ: أنه لا يوجد طقس مشابه لطقس تيس عزازيل سوى تطهير الأبرص والعصفورين، حيث يُذبَح الواحد ويُطلَق سراح الثاني، وهو طقس يشير إلى الخطايا العامة والجدية، والخطايا الشخصية.

+ هكذا تبقى الخطية إلى حين حتى يأتي المسيح «كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا» (إشعياء ٥٣:٦).

+ كل ذلك الطقس كان عبارة عن بارقة أمل، لإشعال الاشتياق إلى مجيء الغافر الكامل، الذي يغفر بسفك دمه هو، فقد كانت نبوات العهد القديم وذبائحه طقوسه تحضيرية فقط.. أمّا نحن فنلنا الغفران من خلال حمل الله وموته وقيامته. كان التيس الهارب تُرسَّب عليه الخطايا فقط ولكنها موجودة، حتى جاء ذلك «الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ» (رومية ٣:٢٥)، «وَلأَجْلِ هذَا هُوَ وَسِيطُ عَهْدٍ جَدِيدٍ، لِكَيْ يَكُونَ الْمَدْعُوُّونَ – إِذْ صَارَ مَوْتٌ لِفِدَاءِ التَّعَدِّيَاتِ الَّتِي فِي الْعَهْدِ الأَوَّلِ – يَنَالُونَ وَعْدَ الْمِيرَاثِ الأَبَدِيِّ» (عبرانيين ٩:١٥)، و«هكَذَا أَبْطَلَ الله الْخَطِيَّةَ بِذَبِيحَةِ نَفْسِهِ» (عبرانيين ٩:٢٦).

حرق المحرقة خارج المدينة:

ويُلقى الرماد الخاص بالثور والتيس في وادي قدرون، ثم يعود رئيس الكهنة إلى ساحة النساء ويقرأ قراءات خاصة بالكفارة من سفري اللاويين والعدد، ثم يختم الصلوات والتسابيح قائلًا: "أعن يا رب شعبك إسرائيل". ثم تُقدَّم الذبائح الإضافية، ثم ذبيحة المساء، كل ذلك بالملابس الذهبية.

وكانت هناك عادة متعلقة بالعيد، أن تغني العذارى في الكروم المتاخمة اللهيكل بعد الاحتفالات، يغنين من أجل الجمال الباقي وحُسن الأخلاق.

وهكذا جاء المسيح، رئيس كهنة الخيرات العتيدة، ودخل مرة إلى الأقداس ليبطل الخطية بذبيحة نفسه (عبرانيين ٩:٨،١٢،٢٦).

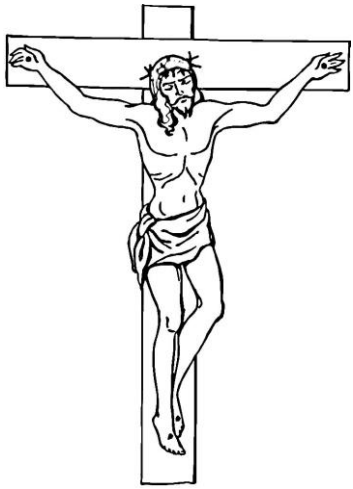

كلمات السيد المسيح على الصليب
عطاء بلا حدود

الكلمات التي ينطق بها المريض هي كلمات هامة، وأمّا كلمات المشرف على الموت فهي أهم كلماته. وكانت أحاديث الرب يسوع مع تلاميذه قبل الصلب أحاديث خاصة سُمِّيت "أحاديث الوداع". نعلم أنه عندما كان شخص يموت بهذه الطريقة، كان عادة يسبّ ويلعن، وتندى عنه بعض كلمات رديئة وتجديف، مثلما فعل اللص الشمال: «وَكَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنِبَيْنِ الْمُعَلَّقَيْنِ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلًا:إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا!» (لوقا ٢٣:٣٩)، وذلك بسبب اليأس الشديد والآلام المبرحة، ولكن السيد المسيح رغم أنه عانى تلك الآلام ذاتها، إلّا أنه قدم ذاته ذبيحة راضيًا، بل اختار الصليب تحديدًا بآلامه القاسية، لذلك سارت الأمور في الاتجاه ذاته..

لقد أعطى المسيح الغفران لصالبيه، والفردوس للص اليمين، وأعطى يوحنا لأمه وأمه ليوحنا، وأعطى فرصة أخيرة لليهود عندما ذكرهم بمزمور الصلب (مزمور ٢٢: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟»)، وأعلن أنه عطشان لخلاصنا، وأعلن اكتمال آلامه والفداء: «قد أُكمِل»، وفي اعلان أنه لا سلطان لأحد عليه، صرخ «يا أبَتاهُ، في يَدَيكَ أستَوْدِعُ روحي».

١- الكلمة الأولى: «يا أبَتاهُ، اغفِرْ لهُمْ، لأنَّهُمْ لا يَعلَمونَ ماذا يَفعَلونَ» (لوقا٢٣:٣٤).

جاء طلب الغفران هنا مقابل صراخ الصارخين: اصلبه اصلبه، وجاءت كلمة "يا أبتاه" ردًّا على تحدّيهم السافر "إن كنت ابن الله...". يقول القديس لوقا: «وكانَ واحِدٌ مِنَ المُذنِبَينِ المُعَلَّقَينِ يُجَدِّفُ علَيهِ قائلًا: إنْ كُنتَ أنتَ المَسيحَ، فخَلِّصْ نَفسَكَ وإيّانا!» (لوقا ٢٣:٣٩). وقد غفر الرب لصالبيه، ولاحقًا تعلم الشهيد استفانوس الدرس وغفر لراجميه: «يا رَبُّ، لا تُقِمْ لهُمْ هذِهِ الخَطيَّةَ» (أعمال ٧:٦٠).

ولكن الرب هنا يلتمس لهم العذر فيما يفعلونه، تصوروا لو أن ملكًا أو حتى شخصًا عاديًا يعاني هذه الآلام القاسية، ثم فجأة ينقلب الوضع فأصبح المصلوب حرًا ثم ملكًا.. تُرى ماذا يمكن أن يصنع بمعذبيه؟.. ولكن السيد المسيح هنا ليس ملكًا فقط، بل هو ملك الملوك والإله بل إله الآلهة. لقد كان بامكانه أن ينزل عن الصليب وينتقم من صالبيه، ولكنه هو القائل بفمه الطاهر: "لهذا أتيت": «الآنَ نَفسي قد اضطَرَبَتْ. وماذا أقولُ: أيُّها الآبُ نَجِّني مِنْ هذِهِ السّاعَةِ؟ ولكن لأجلِ هذا أتَيتُ إلَى هذِهِ السّاعَةِ» (يوحنا ١٢:٢٧). قيل: هزأ ملكٌ وثني بمسيحي تحت آلة التعذيب بين حي وميت، وقال له: "أخبرني يا تابع المسيح، ما هو أعظم عمل عمله لك المسيح؟". فأجاب: "أعطاني القوة لأسامحك رغم ما عاملتني به من قسوة مخيفة!"

وكلمة «لا يدرون» هنا تنطبق على آخرين اضطهدوا المسيح لاحقًا في أولاده، ومنهم شاول الطرسوسي والذي اضطهد كنيسة الله كثيرًا «واضطَهَدتُ هذا الطريقَ حتَّى الموتِ، مُقَيِّدًا ومُسَلِّمًا إلَى السُّجونِ رِجالًا ونِساءً» (أعمال٢٢:٤)، ولكن لما انفتحت عيناه على الحق صار كارزًا بالكلمة وأتى بالكثيرين إلى المسيح. وكذلك أريانوس والي أنصنا، وهو أكثر من عذّب

المسيحيين، تاب وأصبح شهيدًا.. وكلاهما كان لا يدري ماذا يفعل، بل كان يظن أنه يقدم ذبيحة لله «لو عَرَفوا لَما صَلَبوا رَبَّ المَجدِ» (١كورنثوس ٢:٨).

ونحن أيضًا.. أقل ما نقدمه هو أن نغفر للمسيئين: «وأمّا أنا فأقولُ لكُمْ: أحِبّوا أعداءَكُمْ. بارِكوا لاعِنيكُمْ. أحسِنوا إلَى مُبغِضيكُمْ، وصَلّوا لأجلِ الّذينَ يُسيئونَ إلَيكُمْ ويَطرُدونَكُمْ» (متى ٥:٤٤). هكذا نتعلم هنا من السيد المسيح، ألّا نغفر فقط، وإنما نلتمس العذر لمن اخطأ.

حقًا إن كثيرين من الخطاة والظالمين لا يدرون ماذا يفعلون...

٢- «الحَقَّ أقولُ لكَ: إنَّكَ اليومَ تكونُ مَعي في الفِردَوْسِ» (لو٢٣:٤٣)

كان اللصان –اليمين والشمال– مسجونين مع باراباس وآخرين، نتيجة ثورة محدودة قاموا بها ضد الرومان، وكان هذا اللص هو وزملاؤه متدينين على أيّة حال، وقد حُكِم عليه (اللص اليمين) بالصلب مع آخر، في اليوم الذي حوكم فيه المسيح، ليتم قول الكتاب «وأُحصيَ مع أثَمَةٍ» (مر ١٥:٢٨). وقد دافع عن المسيح معترفًا بخطئه، فعندما جدّف اللص الشمال وتطاول بالقول على الرب المصلوب، نهره قائلًا: «أمّا نَحنُ فبعَدلٍ، لأنَّنا نَنالُ استِحقاقَ ما فعَلنا، وأمّا هذا فلَمْ يَفعَلْ شَيئًا ليس في مَحَلِّهِ» (لوقا ٢٣:٤١)، وكان ذلك بمثابة اعتذار للرب، وطلب منه أن يذكره متى جاء في ملكوته.

وإني أتعجب: كيف أدرك أنه الله، وأن له مُلكًا وملكوتًا؟ وفي المقابل لم يجرحه المسيح بأن الملكوت لم يأتِ أوانه بعد، بل قال له: «اليومَ تكونُ مَعي في الفِردَوْسِ»، وكوفئ بأنه كان من بين الذين دخلوا الفردوس في ذلك اليوم، وهو الذي تعمّد بالموت مع المسيح وبالدم، هكذا قدم اللص توبة في الدقائق

الأخيرة من حياته، وهكذا دخل الفردوس بدون مطهر، كما أنه بذلك يتأكد لنا ان الروح لا تسبح في الفضاء كما يدّعي البعض، أو أنها تُصرَف في اليوم الثالث، بل أن ما يُصرَف في اليوم الثالث هو روح الحزن، تمامًا مثلما ورد في مثل الغني ولعازر: «ماتَ المِسكينُ وحَمَلَتهُ المَلائكَةُ إلَى حِضنِ إبراهيمَ» (لوقا١٦:٢٢).

ومن ثَمّ انشغل اللص عن الآلام بهذه الدعوة الرائعة: «تكون معي». وربما لو لم يُصلَب في ذلك اليوم لما تقابل مع الرب ولا نال ما ناله، ولعله شكر تلك الظروف وتلك الآلام المباركة: «مَنْ يَغلِبُ فسأُعطيهِ أنْ يَجلِسَ مَعي في عَرشي، كما غَلَبتُ أنا أيضًا وجَلَستُ مع أبي في عَرشِهِ» (رؤيا ٣:٢١).

٣- «يا امرأةُ، هوذا ابنُكِ». ثُمَّ قالَ للتِّلميذِ: «هوذا أُمُّكَ» (يوحنا ١٩:٢٦،٢٧)

السيدة العذراء والقديس يوحنا هما الشخصان الوحيدان اللذان لازما المسيح حتى آخر لحظة، وفي أكثر الأوقات حرجًا، حقًا إنه الحب الذي يبذل ولا يخشى العواقب والمخاطر. لقد هرب التلاميذ جميعًا كما نبّههم الرب من قبل: «هوذا تأتي ساعَةٌ، وقَدْ أتَتِ الآنَ، تتَفَرَّقونَ فيها كُلُّ واحِدٍ إلَى خاصَّتِهِ، وتَترُكونَني وحدي. وأنا لَستُ وحدي لأنَّ الآبَ مَعي» (يوحنا ١٦:٣٢).. فهناك من خان، ومن أنكر، والبقية احتمت في العلية وغلّقت الأبواب.. ولكن الحب القوي تغلب على المخاوف، حقًا إن المحبة أقوى من الموت، مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئها «لأنَّ المَحَبَّةَ قَويَّةٌ كالموتِ... مياهٌ كثيرَةٌ لا تستَطيعُ أنْ تُطفِئَ المَحَبَّةَ، والسُّيولُ لا تغمُرُها» (نَشيدُ ٨:٦-٧).

يقول القديس يوحنا: «فلَمّا رأى يَسوعُ أُمَّهُ، والتِّلميذَ الّذي كانَ يُحِبُّهُ واقِفًا، قالَ لأُمِّهِ: «يا امرأةُ، هوذا ابنُكِ». ثُمَّ قالَ للتِّلميذِ: «هوذا أُمُّكَ». ومِنْ تِلكَ السّاعَةِ أَخَذَها التِّلميذُ إلَى خاصَّتِهِ» (يوحَنا ١٩:٢٦-٢٧). عندما سلّم الرب أمه ليوحنا كان ذلك يعني أنه ليس له إخوة أشقاء بالجسد كما ادعى البعض، وإلّا لكانوا هم أولى بها من يوحنا. وكما أعطى الرب أمه ابنًا بارًا، أعطى يوحنا كذلك أغلى أم في الوجود، فكسبت العذراء ابنًا رائعًا، وكسب يوحنا أمًا حنونًا.. وهكذا يواسيها المسيح وهو المحتاج إلى المواساة، لقد تألم من منظرها وهي مفطورة القلب عليه، ترى آلامه والدم المتدفق منه، وبينما كان يتنقل بعينيه الواهنتين بين أمه ويوحنا، سلّم أحدهما للآخر، ليكون يوحنا عوضًا عنه معها، ولتكن أمه تعزية عن فقدان الحبيب الذي اعتاد أن يلتصق به. لقد تم فيها القول: «وأنتِ أيضًا يَجوزُ في نَفسِكِ سيفٌ، لتُعلَنَ أفكارٌ مِنْ قُلوبٍ كثيرَةٍ» (لوقا ٢:٣٥). ونحن في صلاة الأجبية نقول بفمها: "أمّا العالم فيفرح لقبوله الخلاص، وأمّا أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل، يا ابني وإلهي".

جدير بالذكر أن أول من رأى وجه يسوع المسيح بالجسد كان أمه مريم العذراء، وآخر من رأى وجهه قبل أن يسلم الروح كانت هي أيضًا.

٤- «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» (متى ٢٧:٤٦)

«ونَحوَ السّاعَةِ التّاسِعَةِ صَرَخَ يَسوعُ بصوتٍ عظيمٍ قائلًا: «إيلي، إيلي، لَما شَبَقتَني؟» أيْ: إلهي، إلهي، لماذا ترَكتَني؟» (متى ٢٧:٤٦). قال الرب

ذلك وسط معاناة رهيبة، نفسية وجسدية، ما بين هروب التلاميذ ما خلا يوحنا، وتعيير الجنود، وشماتة رؤساء اليهود، وهياج الكثير من اليهود بإيعاز من الرؤساء.. فكانت معاناته قد وصلت إلى الذروة، ومع ذلك فهي لا تعني ترك اللاهوت للناسوت، ولا ترك الآب للابن، حيث أكّد الرب: «صَدِّقوني أنّي في الآبِ والآبَ فيَّ» (يوحنا ١٤:١١). ويقول القديس بولس: «وإذ وُجِدَ في الهَيئَةِ كإنسانٍ، وضَعَ نَفسَهُ...» (فيلبي ٢:٥-٨).

وعندما قال الرب «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» كان يؤكد أنه يتألم بالفعل، وأن الآلام لم تكن شكلية أو خيالية، كما أن ذلك دليل على أن اللاهوت لم يتدخل ليخفّف الآلام الجسدية. لقد قرر الرب أن يشرب الكأس كاملة، فقال: «قد دُستُ المِعصَرَةَ وحدي، ومِنَ الشُّعوبِ لَمْ يَكُنْ مَعي أحَدٌ» (إش ٦٣:٣)، وقال: «الكأسُ الّتي أعطاني الآبُ ألا أشرَبُها؟» (يو١٨:١١)، كما أشار إلى ذلك مرة أخرى بقوله: «ولي صِبغَةٌ أصطَبِغُها، وكيفَ أنحَصِرُ حتَّى تُكمَلَ؟» (لوقا ١٢:٥٠)، وقال لابني زبدي يعقوب ويوحنا: «أتَستَطيعانِ أنْ تشرَبا الكأسَ الّتي أشرَبُها أنا، وأنْ تصطَبِغا بالصِّبغَةِ الّتي أصطَبَغُ بها أنا؟» (مرقس ١٠:٣٨).

كذلك يرى بعض المفسرين أن السيد المسيح بقوله هذا «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» كان يذكّر اليهود بالمزمور (٢٢) حيث تأتي هذه الآية في مطلعه. وهذا المزمور هو عبارة عن نبوات عن آلام المسيح وصلبه، لعلهم يتذكرون أن داود كان يتكلم عنه بالنبوة، وكأنه يمنحهم فرصة أخيرة، لا لكي ينجو من الموت، وإنما لكي يرجعوا عن شرورهم. فقد سُرّ الله أن يسحقه بالحزن (إشعياء٥٣:١٠).

إن قول الرب «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟»، ليس احتجاجًا أو شكوى، وإنما تسجيل لآلامه وإثبات حقيقتها، وهكذا وكما يقول القديس بولس: «الّذي لَمْ يُشفِقْ علَى ابنِهِ، بل بَذَلهُ لأجلِنا أجمَعينَ، كيفَ لا يَهَبُنا أيضًا معهُ كُلَّ شَيءٍ؟» (رومية ٨:٣٢).

٥- «أنا عَطشانُ» (يوحنا ١٩:٢٨)

كانت آلام الصليب تسبّب عطشًا شديدًا بسبب المعاناة والعرق المتصبِّب.. تعب وإرهاق، إضافة إلى إشعة الشمس، مما يعني أن الجسم قد فقد كمية كبيرة من الماء الذي فيه، «يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي، وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي» (مزمور ٢٢:١٥).. ولكن كيف يعطش وهو ينبوع الحياة الحي (إرميا٢:١٣)؟ وكل من يشرب من الماء الذي يعطيه لا يعطش كما صرّح للمراة السامرية، ولكنه عطشان لخلاصنا كما قال لها. وتصريح الرب أنه عطشان هو تأكيد جديد على بشريته وآلامه الحقيقية وليست تمثيلية كما أسلفنا، وقد قال الرب «أنا عَطشانُ» مرتين، في المرة الأولى لم يرد أن يشرب بعدما ذاق ما بالإسفنجة فوجد فيها خلًّا ومرارة، مما يعني تخفيف آلامه، ومن هنا لم يرد أن يشرب. وفي المرة الثانية قدّموا له مشروبًا بسيطًا بلّ به شفتيه، وهذا المشروب كان يأتي به أحيانًا بعض الفتيات اليهوديات الشريفات ليخفّفن آلام المصلوب، وكانت السلطات الرومانية تسمح بذلك، «ٱنْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ، وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ... وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاًّ» (مزمور ٦٩:٢٠ و٢١).

٦- «قد أُكمِلَ» (يوحنا ١٩:٣٠)

وهذه العبارة الغالية لها أكثر من معنى.. منها مخاطبة الآب: «أنا مَجَّدتُكَ علَى الأرضِ. العَمَلَ الّذي أعطَيتَني لأعمَلَ قد أكمَلتُهُ» (يو ١٧:٤)،

وتعني أيضًا أن الفداء قد اكتمل، فقد تجسد الابن الوحيد، واختتن، وتعمّد، وعلّم، وواجه القادة المُضلِّين، وصنع الآيات، وقدس أرضنا، وصحّح المفاهيم، وأعطى شريعة العهد الجديد شريعة الكمال، وتألم، وصُلِب، وقدم ذاته ذبيحة، وها الذبيحة قد كملت وقُبِلت.. لقد أطاع حتى الموت، موت الصليب، وها هو يسلم الروح مُقدِّما فداءً ثمينًا. كما تأتي العبارة أيضا كهتاف الغلبة والنصرة، وبهذا التصريح نتنفس نحن الصعداء، قائلين: "شكرًا للإله المحب". وتعني العبارة أيضًا استيفاء الجهاد والآلام، إذ أن تعبير "يكمل، ويكملوا، وأُكمِل" يُستخدم للدلالة على الاستشهاد أو كمال الجهاد.

كذلك كملت جميع النبوات التي جاءت عنه (أكثر من ٨٠٠ نبوة)، كملت وتحققت جميعها بالصليب، ما بين الحبل به وميلاده وتعليمه ومعجزاته والمشورة الرديئة عنه وآلامه وصلبه: «لأنَّ فِصحَنا أيضًا المَسيحَ قد ذُبِحَ لأجلِنا» (١كورِنثوس٥:٧). وبهذه العبارة يعلن المسيح أن فترة وجوده على الأرض قد انتهت، وجاء الوقت ليعود من حيث أتى.

٧- «يا أَبَتاهُ، في يَدَيكَ أستَوْدِعُ روحي» (لوقا ٢٣:٤٦)

هذه آخر عبارة نطق بها السيد المسيح قبل أن يسلم الروح على الصليب عند الساعة التاسعة أي الثالثة بعد الظهر، ويؤكد فيها موته بالجسد، هكذا ذاق الموت. ونقول في قطع الساعة التاسعة في الأجبية: "يا من ذاق الموت بالجسد وقت الساعة التاسعة من أجلنا نحن الخطاة..."، وتؤكد العبارة «في يَدَيكَ أستَوْدِعُ روحي» أنه وضع الروح في يدي أبيه وليس في يد آخر، فقد كان الشيطان يتسلّم جميع الأرواح سواء أرواح الأبرار أو الأشرار، حيث يستقر الجميع في الجحيم، بل أن السيد المسيح حالما مات نزل إلى أقسام

الجحيم السفلى وخلّص مختاريه، كما قال القديس بولس «وأمّا أنَّهُ «صَعِدَ»، فما هو إلّا إنَّهُ نَزَلَ أيضًا أوَّلًا إلَى أقسامِ الأرضِ السُّفلَى» (أفسس٤:٩)، وكما نردد في ذكصولوجية القيامة. هنا نتذكر قول الرب: «رَئيسَ هذا العالَمِ يأتي وليس لهُ فيَّ شَيءٌ» (يوحنا ١٤:٣٠).

+ + +

إن هذه الكلمات السبع على الصليب، هي البرهان الأكيد على أن الشخص المُعلَّق على الصليب هو السيد المسيح نفسه، فلا يمكن لسواه أن يصرّح بها، وقد أثبت فيها لاهوته وكذلك ناسوته، إنه الإله المتجسد والمصلوب لخلاصنا.

مأساة رصفة

«وكانَ جوعٌ في أيّامِ داوُدَ ثَلاثَ سِنينَ، سنَةً بَعدَ سنَةٍ، فطَلَبَ داوُدُ وجهَ الرَّبِّ. فقالَ الرَّبُّ: «هو لأجلِ شاوُلَ ولأجلِ بَيتِ الدِّماءِ، لأنَّهُ قَتَلَ الجِبعونيّينَ». فدَعا المَلِكُ الجِبعونيّينَ وقالَ لهُمْ. والجِبعونيّونَ لَيسوا مِنْ بَني إسرائيلَ بل مِنْ بَقايا الأموريّينَ، وقَدْ حَلَفَ لهُمْ بَنو إسرائيلَ، وطَلَبَ شاوُلُ أنْ يَقتُلَهُمْ لأجلِ غَيرَتِهِ علَى بَني إسرائيلَ ويَهوذا. قالَ داوُدُ للجِبعونيّينَ: «ماذا أفعَلُ لكُم؟ وبماذا أُكَفِّرُ فتُبارِكوا نَصيبَ الرَّبِّ؟» فقالَ لهُ الجِبعونيّونَ: «ليس لنا فِضَّةٌ ولا ذَهَبٌ عِندَ شاوُلَ ولا عِندَ بَيتِهِ، وليس لنا أنْ نُميتَ أحَدًا في إسرائيلَ». فقالَ: «مَهما قُلتُمْ أفعَلُهُ لكُمْ». فقالوا للمَلِكِ: «الرَّجُلُ الّذي أفنانا والّذي تآمَرَ علَينا ليُبيدَنا لكَيْ لا نُقيمَ في كُلِّ تُخومِ إسرائيلَ، فلنُعطَ سبعَةَ رِجالٍ مِنْ بَنيهِ فنَصلِبَهُمْ للرَّبِّ في جِبعَةِ شاوُلَ مُختارِ الرَّبِّ». فقالَ المَلِكُ: «أنا أُعطي». وأشفَقَ المَلِكُ علَى مَفيبوشَثَ بنِ يوناثانَ بنِ شاوُلَ مِنْ أجلِ يَمينِ الرَّبِّ الّتي بَينَهُما، بَينَ داوُدَ ويوناثانَ بنِ شاوُلَ. فأخَذَ المَلِكُ ابنَيْ رِصفَةَ ابنَةِ أيَّةَ اللَّذَينِ ولَدَتهُما لشاوُلَ: أرمونيَ ومَفيبوشَثَ، وبَني ميكالَ ابنَةِ شاوُلَ الخَمسَةَ الّذينَ ولَدَتهُمْ لعَدرِئيلَ بنِ بَرزِلّايَ المَحوليِّ، وسَلَّمَهُمْ إلَى يَدِ الجِبعونيّينَ، فصَلَبوهُم علَى الجَبَلِ أمامَ الرَّبِّ. فسقَطَ السَّبعَةُ مَعًا وقُتِلوا في أيّامِ الحَصادِ، في أوَّلِها في ابتِداءِ حَصادِ الشَّعيرِ. فأخَذَتْ رِصفَةُ ابنَةُ أيَّةَ مِسحًا وفَرَشَتهُ لنَفسِها علَى الصَّخرِ مِنِ ابتِداءِ الحَصادِ حتَّى انصَبَّ الماءُ علَيهِمْ مِنَ السماءِ، ولَمْ تدَعْ طُيورَ السماءِ تنزِلُ علَيهِمْ نهارًا، ولا حَيَواناتِ الحَقلِ ليلًا. فأُخبِرَ داوُدُ بما فعَلَتْ رِصفَةُ ابنَةُ أيَّةَ سُرّيَّةُ شاوُلَ. فذَهَبَ داوُدُ وأخَذَ عِظامَ شاوُلَ وعِظامَ يوناثانَ ابنِهِ مِنْ أهلِ يابيشِ جِلعادَ الّذينَ سرِقوها مِنْ شارِعِ بَيتِ شانَ، حَيثُ عَلَّقَهُما الفِلِسطينيّونَ يومَ ضَرَبَ الفِلِسطينيّونَ شاوُلَ في جِلبوعَ. فأصعَدَ مِنْ هناكَ عِظامَ شاوُلَ

وعِظامَ يوناثانَ ابنِهِ، وجَمَعوا عِظامَ المَصلوبينَ، ودَفَنوا عِظامَ شاوُلَ ويوناثانَ ابنِهِ في أرضِ بَنيامينَ في صَيلَعَ، في قَبرِ قَيسَ أبيهِ، وعَمِلوا كُلَّ ما أمَرَ بهِ المَلِكُ. وبَعدَ ذلكَ استَجابَ اللهُ مِنْ أجلِ الأرضِ.» (صَموئيلَ الثّاني ٢١:١-١٤).

هذه قصة مأساة سيدة في عهد داود النبي، جرت أحداثها في بداية حكمه، وقبل فتنة أبشالوم (أصحاح ١٥)، وربما كان قصد شمعي بن جيرا عندما عيّر داود "يا رجل الدماء" له علاقة بالقصة كما سنرى «وهكذا كانَ شِمعي يقولُ في سبِّهِ: اخرُجِ! اخرُجْ يا رَجُلَ الدِّماءِ ورَجُلَ بَليَّعالَ!» (٢صَموئيلَ١٦:٧).

وتُعَد هذه الواقعة من الضيقات التي ألمّت بداود النبي، مثل الحروب والخيانات الكثيرة التي تعرض لها، وعلينا أن نتذكر هنا أنه كثيرًا ما يُعاقَب الشخص في حياته هنا ومن نفس نوع الخطأ، وقد يكون ذلك لخيره لعله يتنقّى وهو ما يزال على الارض.

كان الجبعونيون من بقايا الحويين (يشوع ١١:١٩)، وقد خدعوا يشوع حتى لا يقتلهم، فحلف لهم وعقد معهم صلحًا، ورغم أنه ينطبق عليهم الحكم بالهلاك إلّا أن القَسَم استحياهم، ومنحهم العهد، وأبقاهم يشوع في الأرض محتطبي حطب ومستقي ماء لكل الجماعة (يشوع ٩:٢٦،٢٧)، ولكن شاول عزّ عليه ذلك، واعتبر وجودهم غير لائق وسط الجماعة المقدسة بحسب (تثنية ٢٠:١٩)، ومن ثَمّ فقد قتل منهم كثيرين في مذبحة لم يُشَر إليها إلّا في هذا المكان. وعلى الرغم من غيرته، وعلى الرغم من أنهم وثنيين، إلّا أن الله أراد وجودهم، كما أن شاول الملك نسي العهد والقسم وكسره وهو ضد الشريعة أيضًا (عدد ٣٠:١،٢). ونقرا في سيرة داود النبي أن عددًا غير قليل من

الوثنيين كانوا معه مثل أوريا الحثي وغيره.. وما أن مات شاول حتى طالب الجبعونيون بالانتقام من بيت شاول لكسره القَسَم.

ولكن هل كانت المجاعة انتقامًا من الله للجبعونيون؟ هذا يعني ان الله ينتقم للجميع، وليس هناك مبرّر لظلم غير المؤمنين.

كان داود قد أخطا حين تباطأ في سؤال الرب عن سبب المجاعة سنة وراء سنة، ثلاث سنوات متصلة! ثم طلب رحمة الرب. والمجاعة تأتي بسبب تأخر المطر أو هجوم الجراد، ويتبع المجاعات الأوبئة التي تنتج عن كثرة القتلى دون دفن.

المجاعات في تاريخ بني إسرائيل:

يذكر الكتاب المقدس مجاعة في أيام إبراهيم (تكوين ١٢) وفي أيام إسحق (تكوين ٢٦:١٠)، ومجاعة سبع سنوات عمت بلاد كنعان وأرض مصر في زمن يوسف عقب سني الشبع (تكوين ٤: ٥٤ و٥٦؛ ٤٢:١)، وفي زمن القضاة حين تغرّب زوج راعوث وأسرته (راعوث ١:١)، ولمدة ثلاث سنوات في أيام داود الملك (٢صموئيل ٢١:١)، وفي زمن إيليا النبي وأخآب الملك (١ملوك ١٧:١؛ ١٨:٢)، وفي زمن أليشع النبي (٢ملوك ٤: ٣٨)، وفي حصار السامرة (٢ملوك ٦:٢٥)، وسبع سنين الجوع تنبأ عنها أليشع (٢ملوك ٨:١)، وفي أيام صدقيا في أورشليم عندما حاصرها نبوخذنصر ملك بابل (٢ملوك ٢٥:٣، إرميا ٥٢:٦ مع ١٤:١؛ مراثي٥:١٠). كما يُشار إلى حدوث جوع بعد العودة من السبي (نحميا ٥:٣). كما حدثت مجاعة في أورشليم عندما حاصرها أنطيوكس أوباتور (١مكابيين ٦:٥٤)، وبعد موت

يهوذا المكابي (١مكابيين ٩:٢٤)، وعندما حاصرها سمعان (١مكابيين١٣:٤٩). وفي زمن كلوديوس قيصر (أعمال ١١:٢٨) والذي حدثت في عهده عدة مجاعات كانت إحداها في ٤٥م. وقد اشتد أمرها في فلسطين. وفي حصار تيطس للمدينة سنة ٧٠م، حدثت مجاعة رهيبة. ومن علامات انقضاء الدهر التي ذكرها الرب، حدوث مجاعات وأوبئة (متى ٢٤:٧؛ مرقس ١٣:٨). ونقرأ في سفر الرؤيا عن مجاعة ارتفعت بسببها الأسعار ارتفاعًا جنونيًا.

المطلوبون للقتل:

ما أن علم داود بسبب المجاعة حتى تحول إلى الجبعونيين يسألهم عمّا يريدون، وكان أحرى به أن يسأل الله، ومن المؤكد أن الله لم يكن ليطلب منه قتل البعض. وقد تظاهر الجبعونيون أنهم أناس دعاة سلام، لم يطلبوا ذهبًا ولا فضة ولا أي تعويض مالي كديّة لأنه مرفوض في الشريعة لدى اليهود (عدد٣٥:٣١،٣٢)، فهو يحقّر الانسان ويضع فوارق بين الغني والفقير. وطلبهم أن يقتلوا سبعة من بيت شاول، يُفسَّر لماذا قالوا إنهم ليس لهم أن يقتلوا أحدًا في إسرائيل، بل من بيت المذنب فقط، ولذلك طلبوا قتلهم على جبعة شاول أي مدينته هو.

خطية التسرُّع:

تسرّع داود في قبول طلبهم، مثلما تسرع يفتاح الجلعادي في نذر ابنته متى غلب في الحرب، خاصة وأن الناموس أمر بعدم قتل الأبناء عن الآباء، ولا الآباء عن الأبناء، كل إنسان بخطيته يُقتَل (تثنية ٢٤:١٦).

القتلى:

سلم داود للجبعونيين سبعة من نسل شاول لقتلهم، وهم ابنا رصفة، وبنو ميرب الخمسة «وكانَ في وقتِ إعطاءِ مَيرَبَ ابنَةِ شاوُلَ لداوُدَ أنَّها أُعطيَتْ لعَدريئيلَ المَحوليِّ امرأةً» (١صموئيل ١٨:١٩)، وهم ليسوا أولاد ميكال بالفعل، ولكن وبحسب التلمود فقد نُسِبوا إليها لأنها ربتهم، مثلما ننسب شخصًا لأكثر من أب ما بين شرعي وطبيعي.. بينما استبقى داود مفيبوشث بن يوناثان بسبب الحلف الذي كان بينهما لئلا يقع فيما وقع فيه شاول.

لماذا يموت الأبناء عن الآباء؟

في حضارات الشرق الأدنى –ومنها إسرائيل– كانت العائلة كلها ترث ذنب الأب، فقد كانت الأسرة وحدة واحدة، كذلك فالشعب شعب واحد، ومثلما ينعم الشعب بحكمة الملك يعاني أيضًا بسبب حماقته وأطماعه وقراراته.

ولكنه تأديب من الرب أيضًا... كثير من المتاعب تأتي نتيجة الخطية، وبعض المتاعب تذكّرنا بخطايا سابقة، ويقصد الله من ذلك التوبة والرجوع، وعلينا أن نعتبر ذلك فرصة للتوبة، وعلينا ألّا نعتبر أن تأخُّر العقاب يلغيه، فما لم تكن هناك توبة فالعقوبة آتية سواء على الشخص أو على نسله... هذا تحذير للآباء والأمهات الذين يخطئون، فسوف يُعاقَبون هم أو نسلهم.

لقد دُعي بيت شاول "بيت الدماء"...

رصفة من هي؟

اسمها يعني الحجر الساخن أو بلاطة الفرن. تُعَد قصة رصفة من أروع قصص الأدب الكتابي، وما أظهرته هذه الأم الثكلى غير مسبوق، فلم يمت

ولداها في حادث قطار أو عبّارة أو بمرض، ولكن أمام عينيها.. بل ولم تُدفَن جثتاهما.. وقد أظهرت عاطفة حارة تجاه أبنيها المقتولين.

هي ابنة أيّة بن صبعون من أبناء سعير الحوي (تكوين ٣٦:٢٤؛ ١أخبار ١:٤٠؛ و٢صموئيل ٣:٧)، وهي سُرّية لشاول، أي انها لم تكن من العبرانيين بل أممية. اتخذها شاول سُرّية له فولدت أرموني ومفيبوشث، وكان مفيبوشث الآخر (ابن يوناثان) قد اتهم في وقت سابق أبنير بن نير بأنه دخل على رصفة طمعًا في المُلك (٢صموئيل ١٦:٢٠-٢٢) مما أثار غضب أبنير فتحول ولاؤه إلى داود بدلًا من بيت شاول، وقد ساعد ذلك في تملُّك داود سريعًا (٢صموئيل ٣:٧-٢١).

ماذا فعلت حين قُتِل ولداها؟

اتخذت مسحًا وجلست عليه على الجبل مقابل الجثث السبعة، والتي من المحتمل أنهم قُتلوا قبل التعليق أو صُلِبوا مباشرة. وبَنَتْ رصفة كوخًا من الخوص لتراقب الجثث ليلًا ونهارًا، بدءًا من شهر أبريل وحتى أكتوبر حيث نزل المطر، أي ستة أشهر! والمسح يعبّر عن الحزن والتوبة، ومن ثَمّ يرى البعض أن افتراشها المسح كان يعبّر عن توبة الأرض، فحلّت رحمة الرب على الأرض ونزل المطر.

عمومًا فإن رصفة أظهرت صورة مناقضة للانتقام الوحشي والمذبحة التي كسرت قلبها كأم، وقدّمت بالتالي دليلًا على المحبة، والتي هي أقوى من الموت (نش ٨:٦).

هل اهتمامها بالموتى ينطوي على إيمان غريزي بالقيامة؟ لقد فقدت زوجها وأبناءها، وتُرِكت لتقاتل في معركة الجوع والوحدة والفقر والفراغ.

التعليق على خشبة:

من بين مخالفات هذه الواقعة أن الأجساد ظلّت مُعلّقة وهو ضد الشريعة، أي ترك الأجساد لبضعة أشهر «وإذا كانَ علَى إنسانٍ خَطيَّةٌ حَقُّها الموتُ، فقُتِلَ وعَلَّقتَهُ علَى خَشَبَةٍ، فلا تبِتْ جُثَّتُهُ علَى الخَشَبَةِ، بل تدفِنُهُ في ذلكَ اليومِ، لأنَّ المُعَلَّقَ مَلعونٌ مِنَ اللهِ. فلا تُنَجِّسْ أرضَكَ الّتي يُعطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ نَصيبًا» (تَّثنيَة ٢١:٢٢-٢٣).. فكيف يكون ذلك من الله، وفيه نقض للناموس؟!

داود يتأثر:

ما أن سمع داود بما فعلته رصفة حتى تأثر جدًا، ومن ثَمّ فقد حذا حذوها في إكرام عظام شاول وبنيه والذين قُتِلوا معه في معركة جلبوع، وكان سكان يابيش جلعاد قد حملوا عظامهم ودفنوها في قبر مهجور (١صموئيل٣١:١١-١٣؛ ٢صموئيل٢:٤)، وكانوا قد سرقوها من ساحة بيت شان (الآن بيصان، ٨ كم غربي نهر الأردن)، ودفنها داود لاحقًا في احتفال عام مع السبعة المصلوبين، إكرامًا للكل من جهة، ومن جهة أخرى لكي يُظهِر أنه ليس هناك عداوة فيما بينه وبين نسل شاول..

جبعة والجلجثة:

رأى بعض الشُرّاح وجه تشابه بين جبعة والجلجثة. وبين رصفة وهي تقف أمام سبع شجرات، ومريم وهي تقف امام شجرة الصليب "ⲱϵ". ففي ذلك الجبل، أمام الرب، نجد ظل الجلجثة، وسبعة أبرياء قُتِلوا وصُلِبوا تكفيرًا عن خطية الآخرين، تحملوا اللعنة لقَسَم تم الحنث به، لأنه ملعون كلّ من عُلِّق

على خشبة.. وبموت المسيح على خشبة (الصليب) أوفى ابن الله الدين، وقدم كفارة عن العالم كله، الجنس البشري الخاطئ.

بين رصفة والمجدلية:

رصفة لم تستطع نسيان ابني محبتها، وفي مراقبتها المُضحِّية للموتى عبّرت عن إحساس سرّي دفين على رجاء القيامة.. هكذا المجدلية هناك، مقابل القبر، ترقب المكان الذي وضعوا فيه الحبيب، ولأنها لم تكن مدركة قيامته التي تنبأوا بها، جاءت تحنّط الجسد «وبَعدَما قامَ باكِرًا في أوَّلِ الأُسبوعِ ظَهَرَ أوَّلًا لمَريَمَ المَجدَليَّةِ، الّتي كانَ قد أخرَجَ مِنها سبعَةَ شَياطينَ. فذَهَبَتْ هذِهِ وأخبَرَتِ الّذينَ كانوا معهُ وهُم يَنوحونَ ويَبكونَ. فلَمّا سمِعَ أولئكَ أنَّهُ حَيٌّ، وقَدْ نَظَرَتهُ، لَمْ يُصَدِّقوا» (مرقس ١٦:٩-١١).

هذه صورة من صور نتائج الخطية والتي ظهرت في العهد القديم.. ضعفٌ وحروب ومجاعات وخيانات، لينمو الشعور بالحاجة الماسة إلى وجود المخلص، وإن كان الامر لا يخلو من عبرة ومنفعة، فمع وجود هذا الانتقام والدماء تظهر مواقف النُبل والوفاء.. ونشتم رائحة الجلجثة.

نتألم ونقوم معه

نستخلص بعض الدروس هنا من آلام المسيح وقيامته، لحياتنا.. فلنتألم معه خارج المحلة، ونحمل عاره، ونعمل عمل القيرواني العظيم، ونعتذر مع اللص اليمين متوسلين إلى المسيح ليكون لنا نصيب معه في الملكوت، وننتبه كيف نظر المسيح الى الذين وشوا به، والذين سخروا منه، والذين حاكموه والذين أصدروا حكمًا جائرًا بحقه، والذين تركوه مصلوبًا وأداروا له ظهورهم وهو الآتي لأجل خلاصهم، ونحيا معه لمسة الحنان من يوسف ونيقوديموس والمريمات والتلميذ الذي لاصقه حتى القبر، وننعم معه بالظفر بالموت، وأمجاد القيامة.

١- الانقلاب بعد المديح:

استقبل اليهود المسيح بالتهليل والأغصان، وهتفوا: «أوصنّا هذا هو ملك إسرائيل»، ولكنهم بعد أربعة أيام هتفوا «اصلبه... ليس لنا ملك إلا قيصر»، وصار هذا شعارًا: "الذين هتفوا أوصنا، هم ذواتهم الذين هتفوا اصلبه"! أقول ذلك ليس للتشكُّك في المديح أو الاستخفاف به، وإنما لنتعامل معه بنضج، ولا نعتمد عليه ولا نغتذي منه، ذلك بسبب الضعف البشري وعدم استقرار المشاعر. كذلك فالمهم هو من يمدحه الله وليس الناس «الَّذِي مَدْحُهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ بَلْ مِنَ اللهِ» (رو ٢:٢٩).

٢- الخيانة:

وقد خان المسيح بعض من تلاميذه، وكثير من اليهود الذين علمهم وعاش معهم وأطعمهم وصنع معهم المعجزات، هم أنفسهم الذين وشوا به

وأصروا على قتله ورفضوا أيّة بدائل أخرى لعقابه، وتخلى عنه بقية التلاميذ في أكثر الأوقات حرجًا.. وهكذا نحن أيضًا قد نخون الله بشكل من الأشكال. وقد نتعرض للخيانة من الأقربين، إمّا بسبب الضعف البشري، أو بسبب المال، أو لطبيعة في الشخص؛ ولكن عدم أمانة الآخرين لا يبطل بالطبع أمانتنا، وعلينا أن نتوقع ذلك ممن حولنا، دون أن نُصدَم فيهم، والأكثر من ذلك أن نشفق على أولئك دون أن نتحداهم أو نكرههم، فالمسيح مات عن الأعداء الذين أحبهم فقتلوه. وقد تأتي الخيانة من قريب أو من صديق أو موظف أو جار، لا تتحسّب لذلك فتتشكّك في الكل، بل اعمل لأن البقاء والانتصار في النهاية لمن يعمل.

٣- الرفض:

هكذا رُفِض المسيح من خاصته وأهله، بل جاء عنهم أنهم خرجوا ليمسكوه: «بَنو أُمّي غَضِبوا علَيَّ» (نشيد ١:٦)، تمامًا مثلما يخدم الكاهن ويُرفض من شعبه، أو خادم يسمع من يقول: «لا نُريدُ أنَّ هذا يَملِكُ علَينا» (لوقا ١٩:١٤). إن بعض الرؤساء الشرفاء قالوا بعد انتخابهم إنهم مسئولون عن الذين قالوا نعم والذين قالوا لا. قد يحدث أن يرفض الابن أباه أو أمه ولكنهما قطعًا لا يرفضانه، فهو لا يعرف ما لخيره وسوف يعتذر لاحقًا. ويمكن أن يُرفَض إنسانًا في البداية ولكنه يُقبَل لاحقًا، المشكلة أن يحدث العكس، لقد رفض الأمم الله ولكنهم عادوا إليه لاحقًا كما ورد في مثل الابن الضال ومثل الابنين. لا تعلّق كثيرًا على الانطباع الأول، ولا تيأس من عدم الاستجابة، مثل التلاميذ والأبناء الذين يعصون كثيرًا، ومثل الشخص الذي لا يسمع للكاهن لعدة مرات.

٤- السخرية:

السخرية التي ذاقها المسيح من خاصته لا توصف «وَكَانَ الشَّعْبُ وَاقِفِينَ يَنْظُرُونَ، وَالرُّؤَسَاءُ أَيْضًا مَعَهُمْ يَسْخَرُونَ بِهِ قَائِلِينَ: خَلَّصَ آخَرِينَ، فَلْيُخَلِّصْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَسِيحَ مُخْتَارَ اللهِ!» (لوقا ٢٣:٣٥)، وقالوا مرة أخرى "ليأتِ إيليا ليخلصه"، ومرة يجثون على ركبهم أمامه مثلما يفعلون قدام الملوك، ويسخر بيلاطس منه قائلًا: «ما هو الحق؟»، ويسخر هيرودس منه طالبًا آية، ثم واضعًا ثيابًا أرجوانية عليه مستهزئًا... أنت تعمل عملًا عظيمًا، فلا تلتفت إلى من يسخر منك. أنت متمسك بإيمانك، فلا تُحبَط ممن يسخرون، سواء في الداخل أو الخارج. أنت صاحب رسالة فلا تتراجع، ولا تجعل سلامك أو ضميرك في أفواه الناس. أنت لا تنتظر المكافأة من الناس... لقد قرأنا عن سخرية شاب من أبيه الذي سيموت بدلًا منه، وسمعت عن تنكُّر البعض لذويهم وشعورهم بالعار منهم، ولكن ذويهم لم يتوقفوا في المقابل عن القيام بدورهم لصالح الساخرين.

٥- الآلام الجسدية:

ما من أحد لا يعرف ما عاناه السيد المسيح من آلام جسدية، ما بين التقييد والجلد وإكليل الشوك والمسامير والحربة، والآلام المبرحة وهو يحمل الصليب مُنهَكًا، وكذلك وهو مُعلَّق لا يستطيع التنفّس ويتعلّق الجسد كله في المسمارين... آلام تفوق الوصف، وقد قبلها حبًا فينا نحن الخطاة. هكذا نحن نتألم أيضًا، ولكن علينا أن نقبل الآلام بفرح ورضى، عالمين أننا إن كنا نتالم معه فلكي نتمجد معه أيضًا، وأن ندرك أن الأهداف النبيلة لا تتحقق دون معاناة، ونحن نسعى -مع القديس بولس- أن نكمل شدائد جسد المسيح في جسدنا.

٦- **الآلام النفسية:** عانى السيد المسيح آلامًا نفسية شديدة، وعبّر عن ذلك بقوله: «نَفسي حَزينَةٌ جِدًّا حتَّى الموتِ!» (متى٢٦:٣٨؛ مرقس ١٤:٣٤). وفي البستان نظر بحزن إلى التلاميذ قائلًا: «أهكذا ما قَدَرتُمْ أنْ تسهَروا مَعي ساعَةً واحِدَةً؟» (متى ٢٦:٤٠) (لا أتخيل كيف ترك التلاميذ الرب وناموا!). وكانت آلام المسيح بسبب أن التلميذ خانه، والتلاميذ الآخرين تخلوا عنه، وبطرس أنكره، عن ذلك عبّر بالقول «جُزتُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن مَن معي» (إشعياء ٦٣:٣ - قبطي). نحن أيضًا قد لا نجد بجانبنا في وقت الشدة من نعشم فيهم، هكذا قال القديس بولس بحزن الجميع تركوني: «فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَبْ عَلَيْهِمْ» (٢تيموثاوس ٤:١٦)، وكثيرون منّا يعانون ولكنهم لا يفصحون، ويعشمون كثيرًا ولكنهم يُخذَلون.. قل كما قال الرب: "ناموا واستريحوا"، وكما قال القديس بولس: "لا يُحسَب عليهم...".

٧- **العطش:** قال الرب على الصليب مرتين «أنا عطشان». لأول وهلة يظهر لنا السبب أنه شدة العطش وتناقص المياه من الجسم بسبب المعاناة والعرق، ولكننا نفهم أيضًا أنه متعطّش لخلاصنا (والدليل أنه قال لاحقًا: «قد أُكمِل»)، وأنه إنسان كامل، يتألم بالجسد بشدة، فهو بشر.. ونحن أيضًا بشر نتألم ونجوع ونعطش ونحتاج ونعاني «إِلَى هذِهِ السَّاعَةِ نَجُوعُ وَنَعْطَشُ وَنَعْرَى وَنُلْكَمُ وَلَيْسَ لَنَا إِقَامَةٌ» (١كورنثوس ٤:١١)، وفي الصوم نتحمل الجوع والعطش، لابد من أن نشعر بالجوع، هناك أناس لم يعرفوا الاحتياج بعد، البعض منهم قال لي: تمنيت أن أختبر الجوع والعطش الذي اختبره البعض سواء بإرادته أو بغير إرادته. ونحن نعطش أيضًا مع المسيح، ونشعر بعطش وجوع الكثيرين، كما نعطش لخدمة الآخرين وخلاصهم.

٨- **الاحتمال:** احتمل المسيح الآلام بسرور لأجلنا «نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ» (عبرانيين١٢:٢)، هكذا بتفكُّرنا في احتماله للآلام نستطيع نحن أيضًا أن نحتمل المقاومين لنا «فَتَفَكَّرُوا فِي الَّذِي احْتَمَلَ مِنَ الْخُطَاةِ مُقَاوَمَةً لِنَفْسِهِ مِثْلَ هذِهِ لِئَلاَّ تَكِلُّوا وَتَخُورُوا فِي نُفُوسِكُمْ» (عبرانيين ١٢:-٣)، ونعتبر ذلك صليبًا نحمله بفرح. ليس احتمال المسيئين فقط، بل والغفران لهم كما فعل الرب، بل والاستهانة بالخزي من أجل الآخر.

٩- **الموت عن الآخر:** ليس احتمال الخزي فقط وانما الموت عن الآخر أيضًا، «لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ» (يوحنا ١٥:١٣)، وهكذا نسمع عن أب أو أم يموتان عن ابنهما، وقد لا يموتان بالقتل وإنما بالاستنزاف، كما تفعل الأم حين تستنفذ كل طاقتها الجسدية وتموت عن أولادها، أو مثلما يموت الراعي عن رعيته، وقد تعلم الجميع من الرب يسوع الذي مات عنا وكان استحقاقنا نحن الموت، لما خالفنا الوصية «موتًا تموت».

١٠- **الانتصار على الضعف:** وفي النهاية سنتمجد مع الله في ملكوته، كل ليل يعقبه نهار، والنور يأتي بعد أحلك ساعات الليل، وعندما نحتمل الخزي والخيانة والآلام بأنواعها، فنحن في الواقع نتغلب على ضعفاتنا وميولنا الطبيعية، فالذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص، وإن كنا نتألم مع المسيح فلكي نتمجد معه. في كل مرة نضبط أنفسنا وفي كل مرة نفعل ذلك نشعر بالانتصار.

نزل إلى الجحيم من قبل الصليب

«لذلِكَ يَقُولُ: إِذْ صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْيًا وَأَعْطَى النَّاسَ عَطَايَا وَأَمَّا أَنَّهُ صَعِدَ، فَمَا هُوَ إِلاَّ إِنَّهُ نَزَلَ أَيْضًا أَوَّلًا إِلَى أَقْسَامِ الأَرْضِ السُّفْلَى اَلَّذِي نَزَلَ هُوَ الَّذِي صَعِدَ أَيْضًا فَوْقَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ، لِكَيْ يَمْلأَ الْكُلَّ». (أفسس ٤:٨-١٠).

«فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ، مُمَاتًا فِي الْجَسَدِ وَلكِنْ مُحْيىً فِي الرُّوحِ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ» (١بطرس ٣:١٨،١٩).

أُصطُلِح على استخدام "الهاوية" أو "الجحيم" (شاؤول – هاديس) على المكان الذي تستقر فيه الأرواح بعد الموت، ويشبه الحجز في القسم، الكل في انتظار البتّ في أمره، وبينما يوجد في الأقسام البعض أبرياء، فإن الذين كانوا في الجحيم كانوا كلهم تحت الدينونة إلى أن جاء من دفع عنهم دينهم، ولكن لأنه الإله، ولأنه لا يصلح شخص آخر للقيام بالمهمة فقد قدّم ذاته..

والجحيم بالطبع ليس مكانًا ولكنه حالة من الحجز والمعاناة، مثلما نقول إن "فلانًا ورا الشمس" وغيرها من التعبيرات. لقد كان الجميع ينضمون إلى ذلك المكان. وفي إحدى النبوات عن المسيح يقول المرتل «لاَ يَغْمُرَنِّي سَيْلُ الْمِيَاهِ، وَلاَ يَبْتَلِعَنِّي الْعُمْقُ، وَلاَ تُطْبِقِ الْهَاوِيَةُ عَلَيَّ فَاهَا» (مز ٦٩:١٥)، ولما أراد أخوة

يوسف أن يأخذوا بنيامين أيضًا، قال يعقوب «تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ» (تكوين ٤٢:٣٨؛ راجع: تك٣٧:٣٥؛ ٤٤:٢٩، ٣١؛ ١ملوك٢:٦). وقال طوبيا الابن «أخاف أن يصيبني مثل ذلك وأنا وحيد لأبوي فأنزل شيخوختهما إلى الجحيم بالحزن» (طوبيا٦:١٥). بل أن الشيخ رازيس في سفر المكابيين عندما ضغطوا عليه لمخالفة الشريعة رفض «وأجاب بغير توقف وقال بل أسبق إلى الجحيم» (٢مكابيين ٦:٢٣). وهكذا كان اليأس هو اللغة التي يتكلم بها الناس عن الجحيم، فيقول أيوب الصديق «السَّحَابُ يَضْمَحِلُّ وَيَزُولُ، هكَذَا الَّذِي يَنْزِلُ إِلَى الْهَاوِيَةِ لاَ يَصْعَدُ» (أيوب ٧:٩). ويقول سفر الحكمة: «فالذين ناموا تلك النومة في ذلك الليل الذي لا يُطاق، الوارد من أخادير الجحيم الفظيعة» (حكمة ١٧:١٣).

هكذا كان الكل تحت الحفظ وتحت الحكم في الجحيم، الأبرار والأشرار معًا، غير أن الشيطان لا سلطان له على نفوس الأبرار، ولعل ذلك جعل البعض يظنون أن الجحيم عبارة عن طبقتين عليا وسفلى، حيث سموا العليا "حضن إبراهيم" وفيه يسكن الأبرار، بينما السفلى هي مستقر الأشرار، واعتبروا أن معنى هذا هو الجحيم السفلى الذي يذكره داود في مزاميره.

ولكن الآباء لم يشيروا إلى مثل هذا التقسيم، حتى وإن رأى البعض أن لعازر والغني كليهما ذهب إلى الجحيم «فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الجَحِيمِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ» (لوقا ١٦:٢٣). حيث يرون أن الكلمة **رفع** تعني الموضع المرتفع الذي فيه لعازر. والعجيب أن الناموس بشر بموت لمن يخطئ وبالهاوية كمستقر، في حين لم يبشر بقيامة من الأموات، إلاّ أن بعض الأنبياء أشاروا إلى ذلك..

العهد القديم يقدم إرهاصات القيامة واقتحام الهاوية:

وُصِف سكان الجحيم بـ"الجالسين في الظلمة وظلال الموت": «الشعب الجالس في الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور عظيم» (مزمور ١٠٧؛ إشعياء ٩:٢؛ لوقا ١:٧٩). وفي صلاة عزريا والفتية الثلاثة قيل: «باركوا الرب.. لأنه أنقذنا من **الجحيم** وخلصنا من يد **الموت**» (دانيال ٣:٨٨). وفي هذا رد على الذين ادّعوا أن الجحيم والهاوية هو مجرد القبر، كما أنه ردّ على الأشقياء المذكورين في سفر حكمة سليمان: «فإنهم بزيغ أفكارهم قالوا في أنفسهم إن حياتنا قصيرة شقية، وليس لممات الإنسان من دواء، ولم يُعلَم قط أن أحدًا رجع من الجحيم» (حكمة ٢:١).

هكذا كان اليأس قد بلغ منتهاه بالشعب في القديم...

ولكن المرتل داود النبي يشيع الفرح والرجاء رابطًا إياهما بالمسيا المخلص، فيرى عن بُعد الخلاص من الهاوية «يَا رَبُّ، أَصْعَدْتَ مِنَ الْهَاوِيَةِ نَفْسِي. أَحْيَيْتَنِي مِنْ بَيْنِ الْهَابِطِينَ فِي الْجُبِّ» (مزمور ٣٠:٣). وقال «إِنَّمَا اللهُ يَفْدِي نَفْسِي مِنْ يَدِ الْهَاوِيَةِ لأَنَّهُ يَأْخُذُنِي» (مزمور ٤٩:١٥). وهكذا ظل الموتى في القبور بين المعاناة والرجاء المتجدد بين آن وآخر، حتى وُلِد المسيح ولاح أول خيوط الفجر..

وعندما بدأ السيد في معجزاته واعتزت يد الله على الشر والأمراض والأرواح الشريرة، بدأ الذين في الجحيم يتطلّعون بشوق إلى ذلك اليوم الذي سيُفَك فيه أسرهم.. وتصاعد ذلك عند إقامته ابنة يايرس، وأكثر عند ابن أرملة نايين، ثم تلامس الرب مع سكان الجحيم عندما أقام لعازر المنتن في القبر، حيث استدعى روحه من الهاوية..

نـزل المسـيح إلـى الأرض، وبعـد ذلـك إلـى أسـفل الأرض!! ليفـرح سـكان الجحيم؛ ثـم صـعد إلـى السماء وأعدّ لنـا مكانًـا. وكـان انشـقاق حجـاب الهيكـل إيـذانًا ببـدء فـتح الفـردوس، إذ يمثـل الهيكـل الفـردوس المفقـود والـذي اسـتعدناه بالفداء.. ومـا أن هتـف السيد المسيح «**قـد أُكمِـل**» ثـم أسلم الـروح، حتـى نزلـت نفسـه (المتحـدة بلاهوتـه) إلـى الجحيم بعد أن أتـم الفداء ومـزق صـك العبوديـة، واستعادنا لـه من قبضـة الموت والشيطان وموضـع الظلمة وظلال الموت..

والسـيد المسـيح فـي تجسـده لـه جسـد ونفـس وروح مثـل أي إنسـان، هـذا بخـلاف اللاهوت؛ فهـو أقنـوم الابـن المتجسـد لأجـل خلاصـنا. فلمـا مـات علـى الصـليب أودع روحـه الإنسـانية فـي يـدي الآب «يـا أَبَتـاهُ، فـي يَـدَيكَ أسـتَوْدِعُ روحـي» (لوقا ٢٣:٤٦)، وظـل اللاهوت متحدًا بالجسد والنفس وهمـا منفصـلان أحدهما عن الآخر.. وبينما بقي الجسد في القبر غير فاسد، نزلت النفس إلـى أقسام الأرض السفلى..

وعنـدما قـال الـرب للـص اليمـين: «الحَـقَّ أقولُ لـكَ: إنَّـكَ اليـومَ تكـونُ مَعـي فـي الفِـردَوْسِ»، لـم يكـن الفـردوس قـد فُـتِح بعـد، وكـان الراقـدون مـا يزالـون فـي الجحيم، فما تفسير ذلك سوى أنه سيدخل بموتـه إلـى معقل الموت، ويبطل عز الموت، ولم يُمسَك منـه، بل سيخلّص الراقدين: «اَلَّذِي أَقَامَـهُ اللـهُ نَاقِضًـا أَوْجَـاعَ الْمَـوْتِ، إِذْ لَـمْ يَكُـنْ مُمْكِنًـا أَنْ يُمْسَـكَ مِنْـهُ» (أعمـال ٢:٢٤)، «لِـذلِكَ يَقُـولُ: إِذْ صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْيًا وَأَعْطَـى النَّـاسَ عَطَايَا، وَأَمَّا أَنَّـهُ صَـعِدَ، فَمَا هُوَ إِلاَّ إِنَّهُ نَزَلَ أَيْضًـا أَوَّلًا إِلَى أَقْسَامِ الأَرْضِ السُّفْلَى» (أفسس ٤:٨،٩). وهنـا تلمـع نبـوة هوشـع النبـي «مِـنْ يَـدِ الْهَاوِيَـةِ أَفْـدِيهِمْ. مِـنَ الْمَـوْتِ أُخَلِّصُـهُمْ. أَيْـنَ أَوْبَـاؤُكَ يَـا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟ تَخْتَفِي النَّدَامَةُ عَنْ عَيْنَـيَّ» (هوشع ١٣:١٤).

عندما نزل المسيح إلى الجحيم ارتعد الحراس.. انفكت القيود.. سقطت المتاريس.. ذُهِل بوابّو الجحيم، مثلما نقول في ذكصولوجية القيامة: "**بوابّو الجحيم رأوه وخافوا**". وهكذا نقتبس من المزامير في تمثيلية القيامة: «ارفعوا أيها الملوك أبوابكم، وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية...»، وفي سفر أيوب الترجمة السبعينية، يرد: «هل انفتحت لك بوابات الجحيم من الخوف، أو هل ارتعد بوابو الجحيم عندما راؤك» (أيوب ٣٨:١٧).

كان الأبرار الراقدون ينتظرون ذلك اليوم، حين يحملهم السيد الرب خارج هذا السجن. ولعل البعض يتساءل: لماذا لم يفعل الرب ذلك من علوّه أو من فوق الأرض دون النزول إلى الجحيم؟ والجواب: لكي يقتحم معقل الشيطان والموت، ويشهّر بهم جهارًا. «إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ»(كولوسي٢:١٥). ويقول القديس ملاتيوس أسقف ساردس على لسان المسيح: "أنا الذي أبطلتُ الموت، ووطئتُ العدو، ودُستُ الهاوية، وربطتُ القوي، ورفعتُ الإنسان إلى أعلى السموات".

هكذا ربط المسيح القوي في عُقر داره قبل أن "يسبي سبيًا"، وهو ما أكده الرب من قبل في حديثه مع اليهود حين قال: «لا يستطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدخُلَ بَيتَ قَوِيٍّ ويَنهَبَ أمتِعَتَهُ، إنْ لَمْ يَربِطِ القَوِيَّ أوَّلًا، وحينَئذٍ يَنهَبُ بَيتَهُ» (مَر ٣:٢٧). ونقول في القطعة الأخيرة من الساعة السادسة للسيدة العذراء: "لأنه من قِبَل صليب ابنك انهبط الجحيم وبطل الموت".. وهكذا بقدر ما كان اقتحام المسيح للجحيم مرعبًا للشياطين، كان مفرحًا للأبرار، عن ذلك يقول القديس بطرس سبق المسيح فبشّرَ الْمَوْتى(١بطرس ٤:٦)، وأيضًا: «الَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ» (١بطرس ٣:١٩). «لأنادي للمسبيين بالعتق

وللمأسورين بالإطلاق» (إشعياء ٤٢، متى ٤)، «لتخرج من الحبس المأسورين، ومن بيت السجن الجالسين في الظلمة» (إشعياء ٤٢). وفي القداس الغريغوري: "أعطيت إطلاقًا لمن قُبِض عليهم في الجحيم".

هكذا الشيطان الذي فرح لساعة واحدة، هوذا تُهدَم حصونه ويلحق به الحزن والخزي والعار.

سبت الفرح..

ولذلك نُسمي ذلك السبت بالسبت الكبير أو سبت الفرح.. لأن الله أشرق فيه على الجالسين في الظلمة وظلال الموت.. وفي طقس ذلك اليوم تدور القراءات كلها حول النجاة من الموت (بني إسرائيل يعبرون البحر، يونان يخرج حيًّا من بطن الحوت، الفتية الثلاثة ينجون من نار الأتون، حزقيا يُمنَح فرصة جديدة.. الخ.)

وفي الإبصالية العربي ومردّها "آجيوس آثاناتوس ناي نان"، يرد "فدى آدم وأعطاه عربون الخلاص من سائر الأحزان، ونجاه من الضيق والسجون". وفي الإبصالية القبطي: "يا يسوع الحي غير المائت، أبطلتَ الموت بموتك، وحررتَ العالم كله، ثم خلصت آدم وحواء وجنسهما من الجحيم المملوء كآبة..". وفي قسمة سبت الفرح نقول: "يا يسوع المسيح ذا الاسم المخلص، الذي بكثرة رحمته نزل إلى الجحيم وأبطل عزّ الموت".

من الذين قاموا من القبور عند موت المسيح؟

هم كثيرون كما ذكر القديس متى: «وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، وَالْقُبُورُ

تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ» (٢٧:٥٢-٥٤)، فقد كان ذلك ضروريًا لتأكيد أن الخلاص تم بالفداء على الصليب، وهذه علامة ذلك وكأنها **بروفة**.. أو نموذج لما سيحدث. وأما كونهم بقوا في القبور حتى قام المسيح، فلكي يكون المسيح هو باكورة الراقدين من الموت الجسدي الذي وُضِع كعقوبة على آدم وبنيه.

رُبَّ سائل يتساءل عن السبب في قيامهم وبقائهم مع ذلك في القبر؟ فالسبب هو أن ذلك علامة تمام الفداء، وبينما كرز المسيح للأرواح التي في الجحيم وعتقها، فقد سمح لبعضها بالاتحاد بالجسد، ليؤكدوا لنا موضوع تحرير النفوس التي في الجحيم. وأمّا ظهورهم لكثيرين فللتأكيد على القيامة وليكون ذلك كرازة أيضًا.

ونقول في ذكصولوجية القيامة: "بقوته أبطل الموت، وجعل الحياة تضيء لنا، وهو أيضًا الذي مضى إلى الأماكن التي أسفل الأرض. بوابو الجحيم رأوه وخافوا، وأهلك طَلَقات الموت فلم تستطع أن تمسكه. سحق الأبواب النحاس وكسّر المتاريس الحديد، وأخرج مختاريه بفرح وتهليل، وأصعدهم معه إلى العلو، إلى مواضع راحته. خلصهم لأجل اسمه وأظهر قوته لهم".

وفي قسمة القيامة: "الذي من قِبَل صليبه نزل إلى الجحيم، وردّ أبانا آدم وبنيه إلى الفردوس".

هكذا فهم الآباء وتسلموا هذه العقيدة الهامة، بل جعلوها في صميم قانون الإيمان الرسولي قبل نيقية: "وأؤمن بابنه الوحيد، يسوع المسيح ربنا، الذي حُبِل به من الروح القدس، ووُلِد من العذراء، وتألم في عهد بيلاطس البنطي،

وصلب، ومات، وقُبِر، **ونـــزل إلـــى الجحيـــم**، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث...".

وبالتالي فإن أيقونة القيامة في الكنيسة منذ وقت مبكر، هي أيقونة نزول المسيح إلى الجحيم وإصعاد من به من الأبرار (أخرج مختاريه).

أخيـرًا.. نزل المسيح إلى الأرض، ثم شقّ حجاب الهيكل، ثم عبر إلى أسفل الأرض، ثم عبـــر إلى السمـــوات ليجلس عن يميـــن العظمـــة، ليعدّ لنا مكانًا ثم يأتي ليأخذنا.

ما بين الصليب والقيامة

لا صليب بلا قيامة، ولا قيامة بلا صليب.. وهكذا ليس ألم بدون مجد، ولا مجد بدون ألم. قال أب: "لا يُكلَّل إلّا الذي انتصر، ولا ينتصر إلّا الذي حارب".

في كل مرة تحدث السيد المسيح عن الصلب والموت، ربط ذلك بالقيامة في اليوم الثالث: «مِنْ ذلكَ الوقتِ ابتَدأَ يَسوعُ يُظهِرُ لتلاميذِهِ أنَّهُ يَنبَغي أنْ يَذهَبَ إلَى أورُشَليمَ ويَتألَّمَ كثيرًا مِنَ الشُّيوخِ ورؤَساءِ الكهنةِ والكتبةِ، ويُقتَلَ، وفي اليومِ الثّالِثِ يَقومَ» (متى ١٦:٢١). وفي آلام الرب وموته ظهرت القيامة في الصليب كما ظهر الصليب في القيامة، لقد مات المسيح قائمًا وليس منطرحًا، ولم يقدمه آخرون ذبيحة بل سلّم نفسه طواعية، وقرّر ذلك حين قال: «لي سُلطانٌ أنْ أضَعَها ولي سُلطانٌ أنْ آخُذَها أيضًا» (يوحنا ١٠:١٨). وحدث أكثر من مرة أن حاول اليهود أن يقتلوه ولكنه لم يسمح لهم لأن ساعته لم تكن قد جاءت؛ لقد حدّد المكان والزمان والطريقة. وفي المقابل حاول بلاطس أثناء المحاكمة أن يطلق سراحه أكثر من ثماني مرات، ولكن المسيح لم يدعه يتمّم ذلك، وصُلِب مُقدِّمًا ذبيحة نفسه، حتى أننا نرتل قدامه وهو مصلوب، لحن "هذه المجمرة – ⲧⲁⲓϣⲟⲩⲣⲏ" وفيه نشير إلى هارون رئيس الكهنة باعتباره كان رمزًا لهارون الحقيقي المُعلَّق الآن على الصليب، والذي يقدم ذبيحة نفسه (لحن ⲫⲁⲓ ⲉⲧⲁϥⲉⲛϥ).

ومن الألحان التي نرتلها للمسيح بينما هو مُعلَّق لحن "بيك اثرونوس ⲡⲉⲕⲑⲣⲟⲛⲟⲥ" والذي في نهايته تعلو نغمات النصرة لأنه الغالب، ولذلك

فالكنيسة الواعية وضعت في أيقونات الصلبوت علامة النصرة وكتبت لفظة الغالب باللغتين اليونانية (نـي كـا νικα) والقبطية: (بـي اتشـرو **πιϭρο**)، فقد خرج غالبًا ولكي يغلب (رؤيا ٦:٢)، وفي وقت لاحق رفعت الكنيسة المصلوب من فوق الصليب من الأيقونات، لتجعل الصليب وحده مُخضّبًا بالدماء رمزًا للنصرة، وأن المسيح لم يعد مُمسَكًا من الموت، لأنه قام ناقضًا أوجاعه. بينما ترتل الكنيسة بعض الألحان في فترة الخماسين والتي فيها نحتفل بالقيامة لها طابع الشجن أكثر من التهليل مثل لحن اخريستوس آنستي الصغير، ولحن توليثو، والترنيمة الأشهر قام حقًا قام، وترنيمة يا من تخيّر موت الصليب وهي تحكي قصة القبر والقيامة، فالقبر نفسه والذي وُضِع فيه المسيح ميتًا هو ذاته الذي شهد قيامته وانبثق فيه نور القيامة، فبُنِيت كنيسة القيامة فوق القبر المقدس.

وفي التقليد القديم كنا نحتفظ بأيقونة مزدوجة، على الوجه الواحد المسيح مصلوبًا وعلى الوجه الآخر المسيح قائمًا، وكنا ندور بها الكنيسة ونحن نحتفل بموته نهاية الجمعة الكبيرة، مثلما ندور بها ليلة عيد القيامة محتفلين بقيامته.. والحقيقة أننا نحتفل بموته وقيامته معًا في جميع المناسبات الكنسية. وفي أحاديث الرب نفسه تحدث عن قيامته في كل مرة تحدث عن موته كما أشرنا، بل أنه عندما قال إنه لم يتمجّد بعد، كان يقصد أنه "لم يُصلَب بعد"! «قالَ هذا عن الرّوحِ الّذي كانَ المؤمِنونَ بهِ مُزمِعينَ أنْ يَقبَلوهُ، لأنَّ الرّوحَ القُدُسَ لَمْ يَكُنْ قد أُعطيَ بَعدُ، لأنَّ يَسوعَ لَمْ يَكُنْ قد مُجِّدَ بَعدُ» (يوحنا ٣٩:٧).

وعندما قام المسيح ظلّت آثار المسامير والحربة موجودة، ومن الملفت أن تلك الجراح لم يكن ممكنًا مع المصاب العادي أن تلتئم قبل أسابيع ولكنها

شُفِيت خلال يومين، ومع ذلك لم تُمحَ آثارها، هكذا رتّب الرب أن تُشفى ولكن يظل الأثر موجودًا ليؤكد أن الذي مات هو بعينه الذي قام، لئلا يظن البعض أنه شخص آخر، وهو نفس السبب الذي شاء الرب من أجله أن يُدفَن في قبر جديد لم يُدفَن فيه أحد بعد. ولم تظهر جراح المصلوب القائم لتعزية التلاميذ ومحبيه فقط، بل أنه سيظهر على السحاب بها: «هوذا يأتي مع السَّحابِ، وسَتَنظُرُهُ كُلُّ عَينٍ، والّذينَ طَعَنوهُ، ويَنوحُ علَيهِ جميعُ قَبائلِ الأرضِ. نَعَمْ آمينَ» (رؤيا ١:٧)، بل يظهر في الرؤيا قائمًا مذبوحًا: «ورأيتُ فإذا في وسَطِ العَرشِ والحَيَواناتِ الأربَعَةِ وفي وسَطِ الشُّيوخِ خَروفٌ قائمٌ كأنَّهُ مَذبوحٌ، لهُ سبعَةُ قُرونٍ وسَبعُ أعيُنٍ، هي سبعَةُ أرواحِ اللهِ المُرسَلَةُ إلَى كُلِّ الأرضِ» (رؤيا ٥:٦)، وعندما كانت النسوة تبحثن عن المسيح فجر الأحد قال لهن الملاك: «لا تندَهِشنَ! أنتُنَّ تطلُبنَ يَسوعَ النّاصِريَّ المَصلوبَ. قد قامَ! ليس هو ههنا. هوذا المَوْضِعُ الّذي وضَعوهُ فيهِ» (مرقس ١٦:٦).

وفي المعمودية –والتي هي موت وقيامة مع المسيح «فدُفِنّا معهُ بالمَعموديَّةِ للموتِ، حتَّى كما أُقيمَ المَسيحُ مِنَ الأمواتِ، بمَجدِ الآبِ، هكذا نَسلُكُ نَحنُ أيضًا في جِدَّةِ الحياةِ؟» (روميَةَ ٦:٤) – يرتدي المُعمَّد ثيابًا بيضًا مع شريط أحمر، إذ قد بيّض ثيابه بدم الحمل (رؤيا ٧:١٤)، بل كان الموعوظون ينالون سر المعمودية يوم سبت الفرح كأنسب يوم (مع يومي عيد الغطاس تذكار عماد المسيح، وأحد المولود أعمى المُسمّى بأحد التناصير)، لأن المعمودية هي موت وقيامة مع المسيح، ومن ثَمّ نزفّهم مع أيقونة المسيح القائم ليلة العيد، فيما نسمّيه "موكب النصرة". وكانت الترنيمة التي تُقال للمُعمَّدين حديثًا حسبما أشار القديس بولس: «استَيقِظْ أيُّها النّائمُ وقُمْ مِنَ الأمواتِ فيُضيءَ لكَ المَسيحُ» (أفَسُسَ ٥:١٤).

قدّم السيد المسيح نفسه مرة واحدة على الجلجثة، فلماذا نعيد ذبيحة الإفخارستيا يوميًا؟

يتساءل إخوتنا البروتستانت «الّذي ليس لهُ اضطِرارٌ كُلَّ يومٍ مِثلُ رؤَساءِ الكهنةِ أنْ يُقَدِّمَ ذَبائحَ أوَّلًا عن خطايا نَفسِهِ ثُمَّ عن خطايا الشَّعبِ، لأنَّهُ فعَلَ هذا مَرَّةً واحِدَةً، إذ قَدَّمَ نَفسَهُ» (العِبرانيّينَ ٧:٢٧). نعم! المسيح قدم نفسه مرة واحدة وهي كافية، ولكنه فوق الزمن والذبيحة ممتدة منذ يوم الصلب وحتى مجيئه على السحاب، ممتدة رأسيًا وكذلك ممتدة أفقيًا، فهي نفس الذبيحة التي تُقام في كل مكان في العالم، ويتضح لنا ذلك من قول الرب: «وأخَذَ خُبزًا وشَكَرَ وكسَّرَ وأعطاهُمْ قائلًا: هذا هو جَسَدي الّذي يُبذَلُ عنكُمْ. اِصنَعوا هذا لذِكري» (لوقا ٢٢:١٩)، ولئلا يظن أحد أن الرب كان يقصد مجرد الاحتفال كما نفعل في أعياد ميلاد الناس أو تذكار الشهداء، نقرأ ماذا يقول القديس بولس: «فإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ. إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ. وَلكِنْ لِيَمْتَحِنِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَهكَذَا يَأْكُلُ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبُ مِنَ الْكَأْسِ. لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ. مِنْ أَجْلِ هذَا فِيكُمْ كَثِيرُونَ ضُعَفَاءُ وَمَرْضَى، وَكَثِيرُونَ يَرْقُدُونَ» (١كورنثوس ١١:٢٦-٣٠). وهل يكون مجرما ذاك الذي يتناول مجرد خبز وخمر لأنه غير مستحق، أم لأنه بالفعل جسد الرب ودمه الحقيقيين؟! المسيح فوق الزمن.. قصدتُ مما مرّ من الشرح أن المسيح وبالرغم من قيامته من الأموات، ألّا أننا نحتفل بذبيحته على الصليب حتى الآن، فالدم المسفوك على الصليب فوق الجلجثة ما يزال مهروقا في الكأس فوق المذبح حتى الآن.

الصليب والقيامة يكمل أحدهما الآخر: بالصليب ذُبِح المسيح الابن الوحيد، وبالقيامة أعلن الآب قبول الذبيحة. بالصليب مات الموت، وبالقيامة وهبنا الحياة الأبدية. وعندما نفرح بالقيامة نفتخر بالصليب: «فحاشا لي أنْ أفتَخِرَ إلّا بصَليبِ رَبِّنا يَسوعَ المَسيحِ» (غلاطية ٦:١٤)، ولم يقل: "إلا بقيامة الرب"، لأن المعجزة الحقيقية كانت في الصليب وليس في القيامة، فالقيامة من الموت أمر منطقي بالنسبة لله واهب الحياة، وأما الموت فهو الأمر الذي يستعصي على الأفهام. وفي جميع الاحتفالات نرفع الصليب في المقدمة، بما في ذلك "دورة القيامة". كذلك عندما نفرح نرشم الصليب، وعندما نُفاجَأ، وعندما نفتخر، وعندما نفعل أي شيء نرشم الصليب، ونرفع الصليب على أيدينا ومنائرنا وقبابنا، ونفتخر به إذ صار لنا به الخلاص. وأمّا القيامة فهي مضمونة وحتمية لأن المسيح لم يكن ممكنًا أن يُمسَك من الموت. وفي كل قداس نهتف: "بموتك يا رب نبشر، وبقيامتك المقدسة... نعترف".

«لأعرِفَهُ، وقوَّةَ قيامَتِهِ، وشَرِكَةَ آلامِهِ، مُتَشَبِّهًا بموتِهِ» (فيلبي ٣:١٠)

خرج غالباً لكي يغلب «الغالب»

من بين ألقاب السيد المسيح التي اُستُخدِمت كثيرًا، لا سيّما في العصر الرسولي: «الغالب» وكانت تُستَخدَم مقرونة بالصليب والقيامة، غير أنها ارتبطت بالآلام والصلب أكثر مما ارتبطت بالقيامة، فبينما تظهر آثار الجروح في جسد المسيح القائم، يُكتَب على أيقونة الصلب بما فيها من آلام وموت: «الغالب» سواء بالقبطية "بي اتشرو" = **Пібро** أو باليونانية "ني كا" = NI KA. ذلك لأن المسيح: «بالموت داس الموت».

لقد غلب المسيح الموت والشيطان والخطية والأمراض، وأظهر سلطانه على الطبيعة، وعندما صرّح: «ثِقوا: أنا قد غَلَبتُ العالَمَ» (يوحنا ١٦:٣٣)، كان في الواقع يطمئننا أنه غلبه لحسابنا، وترك لنا هذه الغلبة رصيدًا نسحب منه كل يوم فيزداد.

ومما يلفت الانتباه أن شكل أصابع اليد عند رشم الصليب قديمًا، كانت تجعل الإبهام عند العقلة العاشرة حيث حرف اليوطا اليوناني (**I**) والذي يشير إلى يسوع (**Iнсоус**)، بينما أصبعا "السبابة والوسطى" في وضع حرف ني اليونانية (V) اختصار (ني كا) أي الغالب، ومنها جاءت علامة الـ (V) الإنجليزية الشهيرة والتي تعني النصر، والشائعة الاستخدام في كل مكان بالعالم، ومنها جاء الاسم Victor (بقطر) ومعناها المنتصر.

ومما يجدر معه الإشارة هنا أن الكنائس القديمة كانت تحتفظ بأيقونة ذات وجهين، الواحد عايه الصلبوت، والوجه الثاني القيامة، لتدلّل بذلك على أن المسيح المصلوب مصلوب قائمًا وأنه الحمل المذبوح كأنه قائم. كانت علامات القيامة واضحة في المسيح المصلوب في وضع القيامة، بينما علامات الجراح واضحة في جسد المسيح بعد قيامته. وبينما تُزَف أيقونة الصلبوت نهاية الجمعة الكبيرة، كانت الكنيسة تؤكد أنه عمّا قليل سيقوم من الموت. وبعد عدة ساعات وبينما تُزَف أيقونة القيامة، كانت تقول بالموت داس الموت وظفر به «إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ» (كو ٢:١٥)، هكذا قال القديس بطرس: «اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ» (أعمال ٢:٢٤).

"**المجد لقيامتك. المجد لمُلكك. المجد لتدبيرك.**" (لحن القيامة توليثو).

القيامة والفداء

«وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ، وَكَانَتِ الأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ لَهُمْ: سَلاَمٌ لَكُمْ! وَلَمَّا قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ، فَفَرِحَ التَّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوْا الرَّبَّ» (يوحنا ٢٠:١٩،٢٠).

لا شك أن أفراح القيامة هي للذين تألموا. فعلى المستوى الأضعف، فإن للقيامة فجر الأحد بهجة خاصة للذين جازوا الآلام مع المسيح (لا سيّما أصعب ثلاث ساعات من السادسة إلى التاسعة عندما أسلم الروح)، بعكس الذين يحتفلون على مستوي "التقويم" فقط.. الذي عاش الآلام مع المسيح خطوه بخطوة، واضعًا خطيته أمامه، مقتنعًا أن الخطيه هي التي سببت ذلك، وقدم توبه حقيقية ودموعًا سخية طوال الأسبوع، هو الذي ينظر بلهفة موت الرب وقيامته.. «إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ».

الخمسين المقدسة نعتبرها "يوم أحد" طويل، وهو اليوم الذي يشير إلى الحياة الأبدية، ومن ثَمّ تبدأ أفراح الأبدية من الآن، وهي حياة ملؤها الفرح لأنها تخلو من الحزن والكآبة والتنهد.

والأحد هذا اليوم الثامن، يوم دخولنا إلى الراحه الحقيقية، إلى أرض الموعد الجديدة التي تعقب مرارة العبودية، والتي عبرنا منها بدم الفصح الحقيقي «لأنَّ فِصحَنا أيضًا المَسيحَ قد ذُبِحَ لأجلِنا» (١كورنثوس ٥:٧).. من هنا يُسمى يوم الأحد: "يوم الأبد". وقديمًا كان القداس يوم الأحد حيث يترك

الناس غربتهم ليأتوا إلى الكنيسة عربون السماء وأيقونتها لكي يتذوقوا الأبدية، وليعودوا متشوّقين إليها حتى يأتوا من جديد، إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يعودون فيه بعد إلى غربتهم، إذ يشعرون أن الموت هو الحائل بينهم وبين الأبدية، يطلبونه ويفرحون به «والموت هو ربح» (فيلبي١:٢١).

وتعبير «ففَرِحَ التلاميذُ إذ رأوا الرَّبَّ» (يوحنا ٢٠:٢٠)، يعنى أنه بعد أن دبّ اليأس في نفوسهم، وشعروا أنهم فقدوا معلمهم، وأن اليهود سيلتفتون إليهم ليفعلوا بهم ما فعلوه به، كانوا يشعرون أنهم فقدوا مصدر قوتهم. الحقيقة أن خوف التلاميذ وهروبهم، وعدم تذكرهم للنبوات في العهد القديم ولا وعوده بالقيامة والتي أعلنها أكثر من مرة، كل ذلك جاء نتيجة الصدمة مما حدث والتي تسببت في فقدان توازنهم لأيام، هذا عبّر عنه تلميذي عمواس قائلين: «ونَحنُ كُنّا نَرجو أنَّهُ هو المُزمِعُ أنْ يَفديَ إسرائيلَ» (لوقا ٢٤:٢١).. فلما رأوه فرحوا وتشجعوا وتشددوا، وفارقهم الخوف والحيرة. وقد أكمل الرب لهم هذا بتأكيده أنه هو هو وليس شبحًا «فَأَنْتُمْ كَذلِكَ، عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ» (يوحنا ١٦:٢٢).

وفرح الناس بقيامة المسيح لأن بها أنهى سلطان الموت الذي كانوا يخشونه ويرتعبون منه، فالموت لم يترك لهم أي شخص، وأمّا الآن فقد قهره المسيح وداسه بموته، وأسقاه من نفس الكأس، وصار الناس لا يرهبون الموت، بل يسخرون منه، بل يُقبلون عليه، ويسعون إليه، ولذلك فرح الآباء بالموت، واعتبروه الجسر الذهبي الذي للحياة الأبدية، ولم يعودوا يخشونه، بل وصارت هناك "عطية الموت"، ولعل هذا يفسر لنا السر خلف فرح الشهداء بالموت واستخفافهم به، بسبب رجاء القيامة.. إن القيامة هي رجاء الشهداء والنساك والقديسين.

إن جوهر القيامة هو غلبة الموت، وعطية الحياة الأبدية. فإن حالة عدم الموت كان آدم فيها قبل السقوط، ولكن بالقيامة والفداء تحول إلى حياة أفضل، ولذلك عندما يتساءل البعض: لماذا نموت؟ نجيبهم بأن هذا الموت – والذي صرنا نسميه نومًا أو انتقالًا– ينقلنا من حياة إلى حياة، فاذا لم نمت سنظل هنا، ولكن الموت ينقلنا إلى حياة أبدية، هذا يفسر لنا سر فرح الشهداء واستخفافهم بالموت.. إنه سر القيامة...

وفرح الناس بالقيامة لأن الله بذلك سيحدّد يوما للمجازاة ليدين الكل، لأنه كيف كان يمكن أن يتحدد ذلك قبل الفداء؟ ولذلك تحدث الرب كثيرًا وهو على الأرض عن قيامة الأموات، ومجازاة الأبرار والأشرار، والذين عن اليمين والذين عن اليسار، وعن النار الأبدية...

خمسون يومًا كلها أفراح، فيها ننزع عنا ثياب الترمُّل، ونترك التراب والرماد، نأكل ونشرب ونُسبح، التسابيح فرايحي، التحية واثقة "المسيح قام، بالحقيقة قام"، الدورة المبهجة في كل يوم بالكنيسة ورايات النصرة، والهتافات والنور المفاجئ ليلة العيد، والزغاريد، والرايات البيضاء عوض السوداء.

ولكنه فرح متعقّل في الطعام والشراب والترفيه، إن الفرحة قلبية وتتعلق بالحياة الآتية، هناك من يصومون طوال الحياة ويأتي عيد القيامة ليتذوقوا فيه طعم الأبدية وفرح الخلاص، «نَتَرَنَّمُ بِخَلاَصِكَ، وَبِاسْمِ إِلهِنَا نَرْفَعُ رَايَتَنَا. لِيُكَمِّلِ الرَّبُّ كُلَّ سُؤْلِكَ» (مزمور ٢٠:٥). بعض ألحان القيامة تميل إلى الشجن أكثر من التهليل، مثل ترنيمة "قام حقًا" ولحن "تو ليثو" و"آجيوس الفرايحي" و"اخريستوس آنستي" باللحن الصغير.

أيقونات الفرح: ويُصوَّر الفرح بالقيامة في الأيقونات على النحو التالي:

+ أيقونة نزول المسيح الجحيم وهي الأيقونة الرسمية للقيامة، يظهر فيها المسيح وهو يجتذب إليه الراقدين على الرجاء، بينما الشياطين تنظر مشدوهة فاغرة أفواهها مما يحدث.

+ والأيقونة الثانية: وجود المسيح بين تلاميذه، سواء في العلية أو على بحر طبرية ويغمرهم السرور.

+ والأيقونة الثالثة: أيقونة فيها صورتان تمثلان آدم مطرود من الفردوس مقابل المسيح خارجًا من القبر، آدم منكس الرأس والمسيح يرفع الرأس، أولاد آدم في خزي وأولاد المسيح في فخر، الشياطين معبسة ومخزية أمام القيامة، بينما كانت مع آدم فرحة منتشية.

ونفرح بالقيامة بسبب فتح الفردوس مرة أخرى، ولكن ليس الفردوس الأرضي المادي، وإنما فردوس النعيم عربون مكافاة الأبرار.

نفرح لأن المسيح دخل بالبشرية المفتداة إلى يمين الآب، دخل كسابق لأجلنا، نائبًا عنا «حَيْثُ دَخَلَ يَسُوعُ كَسَابِق لأَجْلِنَا، صَائِرًا عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادَقَ، رَئِيسَ كَهَنَةٍ إِلَى الأَبَدِ» (عبرانيين ٦:٢٠)، دخل كباكورة لأجلنا، قام المسيح باكورة الراقدين، وباكورة البشر الذين سيحيون مع الله في مجده، حيث أشارت الى ذلك قديمًا باكورات الثمار والتي كانت تُقدَّم في الهيكل.

وهكذا نستمر طوال الخمسين نهتف هتاف النصرة: "المسيح قام، بالحقيقة قام".

ولكن لا يمكن لأحد أن ينعم بالفرح ومجد القيامة ما لم يكن قد تألم مع المسيح «إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ».

الخماسين المقدسة والتعقل في الحزن والفرح

الخمسين المقدسة أيام يكسوها الفرح والبهجة، ونتذوّق فيها رحيق السماء والسمائيين حول الله، حيث الحياة الأبدية. كانت القيامة هدف التجسد والفداء.

ويشكو الناس عادة من الانفلات في الخماسين ولكن علينا الانتباه إلى ضرورة التعقل في التعبير عن الفرح وكذلك الحزن، فالحزن الذي بمعرفة هو حزن راقٍ واعٍ.. شكل من أشكال التأثر، كذلك الفرح هو شكل من أشكال الارتياح الداخلي؛ وهذا وذاك داخل قالب يتسم بالرزانة، "قلب" سعيد داخل "قالب" متزن ناضج، مثلما يكون الحزن الراقي "قلبًا" متأثرًا داخل "قالب" متوازن، بعيدًا عن الصراخ اليائس أو الهتاف غير الناضج ويعلمنا القديس يعقوب الرسول: «أَمَسْرُورٌ أَحَدٌ؟ فَلْيُرَتِّلْ» (يعقوب ١٣:٥)، وقد تكون الترتيلة مؤثرة تستدرّ الدموع رغم أنها أنشأت تعزية قلبية.

وإذا كانت الخمسين تشبه مذاقة الأبدية، فإن الذي يحيا الأبدية لا يأبه كثيرًا لطعام أو شراب أو لذّة وقتية، بل في التسبيح يذوب، لا سيما إذا تذكرنا أن التسبيح هو السمة الرئيسية لحياة السماء. أمّا الذي يطلق العنان لشهوة الجسد في الخمسين فإنه يدلّل بذلك على أنه كان مكبوتًا مُرغَمًا مضطرًا للصوم، وأنه لم يكن سعيدًا في رحلة الصوم.

هناك أشخاص يصومون طوال حياتهم عن الدسم، وآخرون لا يعرفون الطعام نهارًا، وعندما تكون الميطانيات مرتبطة في الذهن بالذل وانكسار القلب فقط، فإن التحرُّر منها يعطي شعورًا كاذبًا بالحرية. ولذلك يُلاحَظ أحيانًا هدوء

الكنائس بعد العيد مباشرة وخلال فترة الخمسين ولا سيّما في الأيام الأولى، ولكننا فرحون بالرب على الدوام «اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا» (فيلبي٤:٤)، في الصوم وفي الإفطار، في التعب وفي الراحة، في الألم وفي السعادة، على الأرض وفي السماء «مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ؟ وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ» (مزمور ٧٣:٢٥).

العجيب أن بعض أجمل ألحان الكنيسة في فترة الخماسين لها نغمات تبدو حزينة ولكنها شجية معزية (مثلما أشرنا سابقًا)، إن الراحة والتعزية القلبية أشد إبهاجًا وفرحًا للإنسان من مجرد فرحة خارجية أو سعادة سطحية، أهم من مجرد طعام وشراب ونزهة عابرة.

اِتبعني أنتَ

وَلَمَّا قَالَ هذَا قَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ التِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ يَتْبَعُهُ، وَهُوَ أَيْضًا الَّذِي اتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ الْعَشَاءِ، وَقَالَ:«يَا سَيِّدُ، مَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُكَ؟» فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ هذَا، قَالَ لِيَسُوعَ:«يَارَبُّ، وَهذَا مَا لَهُ؟» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ، فَمَاذَا لَكَ؟ اتْبَعْنِي أَنْتَ!» (يوحنا ٢١:١٩-٢٢).

أنت بالاسم: كأن الله يحتاجك أنت بالاسم، أنت بالذات، أنت لست رقمًا، لست واحدًا من الشعب فحسب، بل لك مكانة خاصة. الراعي الذي يحب القطيع كله ويهتم باحتياجاته، في الوقت ذاته يعرف كل غنمة باسمها، ويعرف نفسيتها، ويعطيها كل الحب وليس نسبة منه، بل يزداد اهتمامه بها كلما احتاجت إليه أو تعرضت للخطر.

اتبعني ولا تنشغل بغيري: لا تنشغل في الطريق بالآخرين، لا تدع اهتمامك بمن حولك يأخذك مني، زوجة وأبناء وأصدقاء، أو تجارة أو شهوات. وعندما قال الرب للرسل عندما أرسلهم: «لا تُسَلِّموا علَى أحَدٍ في الطريقِ» (لوقا ١٠:٤)، كان يؤكد عليهم ألّا ينشغلوا بشيء سوى التفكير فيه. وما يُقال للخادم يُقال للجندي الذي لا يهتم بمن جُرِح ومن تأخر، وإنما بهدفه في تنفيذ أوامر قائده، أو بمعنى آخر تمم خدمتك «وَأَمَّا أَنْتَ فَاصْحُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

احْتَمِلِ الْمَشَقَّاتِ. اعْمَلْ عَمَلَ الْمُبَشِّرِ. تَمِّمْ خِدْمَتَكَ» (٢تيموثاوس ٤:٥)، قم بدورك، اهتم برسالتك. إذا اهتم كل شخص بخدمته وبدوره تغيرت الدنيا وعمّ الخير وحُلَّت المشاكل، أو تبدّل الحال. ولعل هذا يعني أيضًا عدم النظر إلى الوراء «فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ:«لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ» (لوقا ٩:٦٢).

المهم أن تخلص أنت: لو خلص الجميع لن يفيدك ذلك ما لم تخلص أنت، وعندما سأله البعض «أَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ يَخْلُصُونَ؟»، أجابهم الرب: لا تنشغلوا بمن سيخلص وكم عددهم، هل الرهبان؟ هل المكرسون؟ هل الخدام هل الخيِّرون؟ أو كم النسبة؟... المهم أن تخلص أنت، مثلما قال الشاعر: "سأطيع الله حتى... لو أطعتُ الله وحدي". وبينما يعزّي الشعب بعضهم بعضًا، وبينما يوجد مجمع للرهبان وللمكرسين، يحرص كل فرد وكل كاهن وكل مكرس على أن يهتم بخلاص نفسه. وبينما يتبع القطيع كله الراعي، فإن عين كل غنمة على الراعي بشكل شخصي، والدليل أن الغنمات توجد وتسير حيث يوجد هو وليس حيث يوجد البعض من القطيع، ولعل الراعي ينظر إلى الغنمة قائلًا: «اتْبَعْنِي أَنْتَ».

لا تغر من الآخرين، فلكل موهبته: لا مقارنة بينك وبين الآخرين، اعمل معي بموهبتك، اتبعني بموهبتك، اخدمني من خلالها، اعمل أنت فقط، جاهد فقط.. عندما عَرَض السيد على البعض أن يتبعوه، اعتذر البعض وطلب إعفاءه، لقد قال الرب لكل منهم: اتْبَعْنِي أَنْتَ، دع الموتى يدفنون موتاهم، أي المحبون للحياة فليتبعوه هو رئيس الحياة، وليترك الناس شهواتهم الجسدية ليتبعوه، ففيه الشبع الحقيقي، لأن كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا.

الذين تبعوه أنواع:

البعض تبعه وتركه لاحقًا: مثل يهوذا وإسكندر الحداد، والذين رجعوا إلى الخلف بعد حديث الافخارستيا في يوحنا ٦. والبعض بالعكس: **رفضوه في البداية ولكنهم عادوا وقبلوه أخيرًا**، مثل الكثير من الخطاة والمُضطهِدين وغيرهم، وكانوا قد جدفوا وهم كثيرون، ومنهم اللص اليمين. **والبعض تبعه شكليًا:** أي أن انتماءه كان مسيحيًا ولكن سلوكه غير مسيحي، محسوب على المسيح والكنيسة ولكنه مُعثر. **والبعض قلبيًا:** ربما كان مسيحيًا في الباطن ويحمل الصفات المسيحية ولا ينقصه سوى المعمودية والأسرار، وهؤلاء كثيرون جدًا، ومنهم من هو مسيحي ويمارس الأسرار ولكن دون أن يعلم به أحد، ومنهم من يدافعون عنّا وهم محسوبون مسلمون. **والبعض تبعه في النهاية:** مثل أريانوس واللص اليمين وتاييس، وغيرهم كثيرون ممن كانوا على فراش الموت. **والبعض تبعه لأغراض مادية:** مثلما قال الرب للبعض تتبعونني «لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ». **والبعض يتبع طالما الكلام يعجب** ولكن عندما واجههم بالحقيقة رفعوا حجارة ليرجموه!

لو خلص مليون شخص في بلدك فلتكن واحدًا منهم، وإن خلص مئة فلتكن واحدًا منهم، وإن خلص اثنان لتكن أحدهما، وإن لم يخلص سوى واحد في المدينة فيجب أن تكون أنت هذا الواحد.... متذكرًا قول الرب «اتْبَعْنِي أَنْتَ»....

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ٥

لماذا نحتفِل بالأعيَاد ٦

عَقيدة الفِدَاء ٩

عَلىَ مشارف الصّليب: السّلاَم المَلكيّ ١٩

خِتَام الصوم ٢٢

المسيح وَهيرودس ٢٥

ليسَ نبىّ بِلاَ كرامة إلاّ في وَطنه ٢٩

اِذهَب عَنيّ يا شَيطان ٣٤

نفسي قَد اِضربَت ٣٧

طوُبَى لذلِك العَبد ٤١

الطِيب وَاكرام القِديسين ٥٠

قَارُورة الطِيب "١" ٥٢

قَارُورة الطِيب "٢" ٦١

الفِصح ٦٣

خشَبَة الصّليب ٧٣

يَوم الكفَّارة ٧٩

كلمَات السَيّد المسيح عَلى الصَّليب (عَطاءُ بِلاّ حدود) ٨٩

مَأسَاة رَصفة ٩٨

نَتألّم وَنقوم مَعهُ ١٠٦

نزلَ إلىَ الجحيم مِنْ قِبَل الصّليب ١١١

ما بَين الصّليب وَالقيَامَة ١١٩

خرَج غالبًا لِكى يغلب "الغَالِب" ١٢٤

القِيَامَة وَالفِدَاء ١٢٦

الخماسين المقدسَة وَالتعقل في الحزن وَالفرح ١٣٠

اِتبعني أنتَ..... ١٣٢

آلامه المُحيية:

ما تزال أحداث آلام المسيح وصلبه وقيامته، هي الأهم في التاريخ البشري، وبقدر ما نشعر بالتأثر حينًا وبالخجل حينًا، نشعر في النهاية بالفخر بالمسيح مصلوبًا، لأننا «بجلدته شُفينا».. ونعجب من هذا التناقُض الظاهري بين مشاعر الحزن والفرح، فلولا آلامه لما خلصنا، هكذا فإننا نصفها بأنها: "آلامه المُحيية".. وصارت أحداث تلك الجمعة المُسمّاة بـ"الكبيرة" مُلهِمة للّاهوتيين والروحيين والكنسيين والموسيقيين والفنانين والأدباء، وتحولت قصة الصليب إلى ملحمة حب «مع المَسيحِ صُلِبتُ، فأحيا لا أنا، بل المَسيحُ يَحيا فيّ. فما أحياهُ الآنَ في الجَسَدِ، فإنّما أحياهُ في الإيمانِ، إيمانِ ابنِ اللّهِ، الّذي أحَبّني وأسلَمَ نَفسَهُ لأجلي» (غلاطية ٢: ٢٠).